# الرجل والموت
# و
# عبر الليل نحو النهار

محمد الراوى




٢٠٠٥

# الرجل والموت
# و
# عبر الليل نحو النهار




اسم الكتاب : **الرجل والموت**
**و عبر الليل نحو النهار**
اسم المؤلف : **محمد الراوى**

**رقم الإيداع ١٣٤٢٦ /٢٠٠٥**

تصميم الغلاف : **كامل جرافيك**
لوحة الغلاف : **عمر جهان**

جمع إلكترونى: **حسام الدين سعد الدين**


**الطبعة الأولى**
**٢٠٠٥**

الإشراف العام : **محمد الحسينى**

المراسلات :
**٢١ ش الصناديلى بالجيزة**
**٦ ش ولى العهد بحدائق القبة**
**الدور الخامس – شقة ٥٠٤**
تليفون: **٥٧١٢٦١٨**
**٤٨٦٢٠٣٣**
موبايل: **٠١٠٢٣١٣٥٧٩**

الموقع الإلكترونى :
www.dar-nevro.i8.com
البريد الإلكترونى :
dar_nevro@hotmail.com

**جمهورية مصر العربية**

# الرجل والموت

الحياة هي تأمل الموت.

أفلاطون

إن ثمة شيئين لا يمكن أن يحدق فيهما المرء :
الشمس، والموت.

لاروشفوكو

إن اهــتمام الناس بدفن أفكارهم عن الموت قد
لا يقل شأنا عن اهتمامهم بدفن موتاهم.

بوســويه

هـتف بي الصوت أول مرة بعد مرور يوم على الواقعة. أخذتني سنة من الـنوم الخفـيف وسمعته همسا في أذني: قم، قم أيها الرجل وتحرك وإلا غلـبك المـوت وحول لحمك وعظامك إلى تراب. تحرك وإلا قضى عليك الموت وأنت في مكانك. وأظن أني أكلم نفسي وأهمس حيث لا يسمعني أحد. ومرة ثانية أتاني الصوت كالهسيس في أذني، صوت غريب عليّ: نم، لا تتحرك ابق في مكانك ولا تقم أبدا حتى يأخذك الموت.

وكنـت أعرف منذ ذلك الحين بأنه الموت يأتيني متخفيا ومخادعا، مهادنـا وشرسا لا يرحم. وفكرت لا الموت يريد أن يأخذني ويقضى عليّ كالآخرين ولا أنا بقادر على التغلب عليه. هو موجود وأنا أيضا موجود. رأيـته وجهـا لوجـه فـي ذلك اليوم مضمخا بالدم. لا أعرف كم شمسا أشـرقت وكم شمسا غربت على ذلك اليوم. فهي كما تجئ تعود، لا تأبه بمـا كـان وبما سيكون. رأيته لبرهة قصيرة بل لقد احتضنته في عتمة الدهلـيز والأجساد تتخبط في بعضها البعض وقد أخذتها مفاجأة الموت. هـو موجـود وأنا أيضا موجود. أراه في الأشياء المحيطة بي، الأشياء الصـامتة والـرؤى المرعبة التي تهاجمني بعد أن تسقط الشمس خلف الجـبل وتسـحب حبال النور من السماء فتسود الظلمة ويخفت الهمس ويـزحف المجهـول نحوى في أشكال معتمة مرعبة. لم أختف، ولم أمت كالآخرين، ولا الموت تارك الأرض بمن عليها.

ولم أعد أسمع إلا كلمة الموت. همس مبحوح، ينبعث من الصمت، ذو إيقـاع بطـيء، يسرع ثم يبطئ، ثم يتوالى عليّ في إيقاع كالضربات فتخـتلط الحروف، أو أسمعها بأشكال أخرى جديدة، لكن الموت بداخلها،

الموت، ألومت، التوم، التاء والميم والواو والألف واللام. تعود الحروف إلـــى ســـمعي مدسوســـة في كلمات مسالمة مخادعة وبحاستي المرهفة بـــالموت كامـــنا فـــيها، كما يكمن في منحنى الشارع الكبير وفى جوف الهـــدوء والصمت، وفى طلقة الرصاص الطائشة، أو في قنيفة القناص. يـــتحول إيقـــاع الكلمة والحروف إلى ما يشبه إيقاع ضربات الأقدام فوق أرض ســـفلية، هـــي أرض الشارع الكبير المهجور. الضربات تأتى من بعـــيد، والجـــرى فـــي وســـط الشارع فيه خطر هو خطر الموت. تتباطأ الخطـــوات بالقرب منى، ثم تأتى دفقة أخرى من الإيقاعات وكأنها أقدام تـــركض فوق إسفلت الشارع، أقدام تائهة، أقدام تعدو باحثة عن ملجأ أو مخـــبأ، أو أقدام من شئ ما يطاردها. يتسلل الصوت كالوهم في أذني ثم يتضـــح ثانية بعد ثانية حتى أحس به يهزني ويحركني من مكاني. أسمع صـــوتا وإذا بـــه وهما. أرى شخصا ما يقترب منى وعندما أكاد ألمسه أجـــده سرابا. الإيقاعات أعرفها جيدا، أقدام تركض وتهرول، أقدام ثقيلة تركض فوق الإسفلت يمزق وقعها الصمت.

لمـــاذا الـــركض في هذا الشارع؟ في لحظات الخطر تتجه الأقدام نحو الداخل، تختفي في الدروب الضيقة، وفى الأدوار السفلية، ولا تتجه أبدا ناحية الشارع الكبير. إيقاع الأقدام يذوب في بعضه البعض، ثم يأتى الصـــمت فجأة عقب ارتطام جسم بالأرض فلا يبقى إلا هو منفردا وحيدا، مطـــروحا حيـــث سقط، لا تفارقه عيناي حتى تسقط الشمس خلف الجبل وترن أجراس الرؤى المرعبة.

علـــى شـــفتي ابتسامة أو هكذا تخيلت حينما شعرت بالابتسام. قد تكـــون مـــن ارتخـــاء عضلات الوجه المرهق من التوتر المستمر. كان موقفـــا صـــعبا. الكـــف تسقط فوق الكف. وأسأل إسماعيل وزكريا كيف حـــدث هـــذا؟ أذكر لي يا إسماعيل بماذا كنت تشعر وأنت تتقلب مع جسد آخـــر فـــوق الأرض؟ إحساسك بعد أن قررت أن تتقاتل في وقت لم تكن مســـتعدا فـــيه إلا للاختباء. ألم يرتعد جسدك وأنت تتوقع أن ينغرس حد الخـــنجر في بطنك أو صدرك، أو أن تنطلق رصاصة في وجهك مباشرة فـــتحطم جمجمتك؟ واسأل يا إسماعيل ويا زكريا ما الذي أنقذكما وقضى علـــى الآخريـــن؟ يـــرد إسماعيل بأنه لم يشعر بأن له جسدا إنما أنفاس ولهـــاث ودمـــاء تفور وتخبط في جدار الرأس. تجول عيناي في وجهي إســـماعيل وزكـــريا وأحدهما في مثل دهشتي وسرحاني.وجهان نحيفان والشعر زحف من أسفل العنق حتى الفودين.

يتســـلل الصـــوت إلـــى ســـمعي عل هيئة صور غامضة وأشكال مجهولـــة. أخـــذت تتضـــح لي شيئا فشيئا، فأرى تارة النعش ذا الرقبة الخشـــبية الطويلـــة. أســـأل نفسي لماذا يضعون هذه الرقبة في مقدمة الـــنعش؟ كنت أراها في طفولتي تبرز من فوق رؤوس المشيعين فأصاب بالرعـــب وأنـــا أراهـــا تقترب منى، مندسة وسط زحام كبير لكن الرقبة الأزلـــية اختفـــت فـــي هـــذه الأيام، فلم يعد هناك وقت لتجميل الموت أو الـــنعش. أي شئ يكفى الغرض، وبلا أى شئ تتم الأمور هنا. أرى اللوح الخشـــبي العـــريض، لـــوح يشبه النقالة، ليس له تلك المقابض المثبتة بالأطراف ولا القوائم القصيرة التي يرتكز بها على الأرض. إنما قطعتين

مـــن الخشـــب متصالبتين  من أسفل اللوح لاستخدام أطرافها الأربعة في رفعـــه. وأرى صـــورة جثة مطروحة فوقه ثم صورة لبعض الناس وهو يحملـــون أجســـادا تـــنزف، ثـــم وهج من النار، وفي كل مرة أفيق على الدخـــان الكثـــيف برائحته الخانقة. أستغرق بعض الوقت حتى أفيق لأجد نفســـي متكئا على الحاجز المواجه للطريق. ومن خلال رؤية مائية أرى بلاطـــات الرصـــيف على بعد مترين مني، ثم نهر الشارع بعرض خمسة أمـــتار ثـــم صفا من المباني القديمة ذات الدور الواحد، هي دكاكين لبيع الـــبقالة والأقمشـــة والأطعمة. بعض أبوابها مغلق والبعض الآخر مفقود أو أصبح منبعجا إلى الداخل والخارج.

كانـــت الشـــمس فوق نهر الشارع،ورغم برودة نوفمبر فإن ثمة قطـــرات مـــن العرق شعرت بها تنزلق فوق وجهي، تدخل عيني فتحمر وتدمـــع. انحســـر نظـــري بعـــيدا عـــن صف المباني المقابلة إلى حافة الرصـــيف القريـــب مني، للوهلة الأولى ارتجفت. ففي هذا المكان تعودت أن أرى الجـــثة، ولكـــني تذكرت بعد وقت قصير من غفوتي أنني نقلتها فـــي الصـــباح إلـــى الشـــارع الجانبي وغطيتها بالقش والأوراق. كانت الأرض صلبة ولم أستطع أن أنزع الأحجار حتى أوارى الجثة قليلا تحت الأرض، فبقيـــت فوقها كتلة صامتة، يزداد انتفاخها كل ساعة وتهب منها رائحـــة عفنة كريهة جذبت الكلاب من الشوارع الجانبية. كنت أسمع في اللـــيل الســـترة تـــتمزق وتتقطع، والحزام غاص في لحم البطن المنتفخ. أعانـــي الانـــتظار ولم يأت أحد ليساعدني في نقلها أو دفنها. أمسكتها من القدميـــن وســـحبتها علـــى الأرض. كانـــت ثقيلة، واصلت سحبها حتى

الشارع الجانبي تاركا إياها بجوار الجدار.

كــان هذا أفضل بالنسبة لي لأنني كلما فتحت عيني على الشارع أجــد هذه الجثة أمامي،وكلما أردت أن أخرج إلى الضوء أو لاستنشاق قلــيل مـــن الهواء البارد تقع عيناي على الجثة المطروحة فوق الأرض وقــد ازدادت تضــخما. وفقــدت أملي في وصول السيارة التي تلتقط الجثــث من أنحاء المدينة. ربما عجزت السيارة عن الوصول إلى هنا أو أنـــه أصــيبت بقذيفة فاحترقت. لم يكن هناك صوت، حتى دوى الطلقات والقذائــف انقطــع لفترة طويلة، ولم يعد ثمة وقع أقدام. السيارة اختفت وأنــا عاجــز عن مغادرة هذا المكان فلا اعلم ماذا يحدث في العالم الذي يقــع بعــد بداية الشارع. صمتت الأشياء معا، اختفى إسماعيل وزكريا، ولــم أعــد أســمع إلا أصوات الأشباح في الليل حيث يهمس الهمس، رقــيقا حــادا، ينفذ من الأذن إلى العظام. ولا أرى إلا الكلاب التي تحاول خلسة أخذ نصيبها من الجثة.

يعــود إلـــى ذهنـــي مدخل الباب المدفوس في الأرض. رأيته من الداخــل كالفوهــة. يحــاول ضوء الشمس أن يتسلل منها إلى الدهليز الطويــل فلا يصل إلا بعضه. الظلمة تبث الاطمئنان في القلوب والأجساد. وكان ذلك الضوء القليل يحمى من خطر الموت، ويحمى الطريق إليهم.

مــررت بـــه عشرات المرات أحيانا وأنا أسير هائما في الحواري الداخلــية وأحــيانا وأنـــا أهرول متجها إلى المخبأ. كنت أمر به دون أن يلفــت انتباهـــي، فهو واحد من مداخل كثيرة عبرت بها. عشت بالقرب

مـــنها، دخلـــت بعضها إما برغبتي أو رغما عني. أنقاض كثيرة اعتليتها اختصـــارا للطـــريق، أو بحـــثا عـــن إنسان، معظمها كانت بيوتا لأهلي وأصـــحابي، الآن هي بيوت وأنقاض بلا أصحاب، أحتمي بها كلما اشتد الخطـــر. لـــم يكن لذلك المدخل مكان محدد في الخريطة التي احتفظ بها فـــي ذهني لكل الحواري والأزقة والأماكن السفلية الرطبة على جانبي الشارع الكبير من أوله لآخره حتى اكتشفته يوما.

كنـــت أجتاز الشارع الجانبي في طريقي لزيارة إسماعيل. بعد أن ابـــتعدت قلـــيلا شـــممت رائحة الخطر، وأتاني الصوت يهز طبلة أذني. واصـــلت السير ملتصقا بالجدران وبأكوام الأنقاض حتى حاذيته. جذبتني رائحـــة الصـــدأ وأنـــا على بعد خطوات منه وعندما عدت إليه، توقفت أمامـــه. هبـــت عليّ الرائحة العفنة. وقفت أمام الباب شاعرا بصلة الود التـــي كدت أفقدها مع هذا المكان الذي أراه لأول مرة. بعد لحظة لأصبح مألوفـــا لـــدى من شكله الخارجي. مارست طقوسي الخاصة وأنا أنشئ علاقتـــي الجديـــدة مع هذا المكان الجديد. انغرست قوائم الباب الحديدي فـــي الـــتراب وأصـــبح جزءا من الأرض وبذا صار الباب أقل خطورة. استنشقت بقوة رائحة الصدأ ووجهت أنفي إلى المدخل فأحسست برائحة العفونـــة فـــي داخلـــي وبذلـــك أصبح المدخل اكثر ألفة لدى. وبدأت في اختبار المساحة الداخلية، وفى التعرف على نظام المكان ووضعه.

تركـــت لإصبعي المدربة القيام بمهمتها في الظلام. لم تعد عيناي تـــريا إلا كتل العتمة في الداخل وهى تتشكل وتسد عليّ الطريق. شعرت بالعـــتمة تصـــدني ثـــم تنفسح أمامي وتتدحرج كرات العتمة في أشكال

غريبة رايتها في أماكن مظلمة كثيرة، أشكال تعودت عليها.

مـــددت يدي إلى أعلى فلم تصطدم بالسقف، فشببت على قدمي ثم قفزت قفزة قصيرة فاصطدمت يدي بالسقف. سجلت في ذهني " لا داعي للانحـــناء عـــند الدخول في هذا المكان ". توغلت داخل الدهليز، شعرت بالـــرطوبة تشتد مع كل خطوة أخطوها إلى الداخل. بدأت أصابعي تتلمس تعاريج الجدار وتقشر طلائه وسقوط الطوب منه.

الأصـــابع هـــي التـــي تنذر، هي التي تصدر الإشارات بالأمان أو بالخطـــر فـــي الظـــلام. كقرون الاستشعار استخدمت ذراعي اليمنى في تحســـس الجـــدار الأيمـــن بينما مددت ذراعي الأيسر أمامي في الظلام. عـــندما وصـــلت إلى نهاية الدهليز، عرفت انه مدخل البيت وقد سقطت فوقه أنقاض الأدوار العليا دون أن ينهار فاختفت نهاية الدهليز المتصلة بسلالم البيت وتركت الطرف الآخر مفتوحا على الطريق.

تطـــوف بـــي أشباح الآدميين. أشباح قليلة مضطربة تعبر بي ولا تلتفـــت إليّ ولا تعيرني انتباها وإن كنت أتحدث معها في بعض الأحيان. أشـــعر بأرواح الذين ماتوا، أحس بها حولي فأقرأ لها السلام في نفسي، وأسألها بصوت خفيض إلى أين أنت ذاهبة؟

تـــنطلق أصـــوات الكلاب من الدروب الجانبية. أحيانا تزحف إلى الخارج فأرى رؤوسها بارزة من تقاطعات الشوارع الجانبية مع الشارع الرئيسي، تتجمع حول المخابئ القديمة المهجورة، والتجاويف المحفورة

فـــي الأنقـــاض، تختفـــي بسرعة حينما تشعر بالخطر، تتشمم الهواء ثم تقـــترب مـــني، تبحث عن طعامها، وإن كنت جيدا بأن لها مخابئ سرية تحتفظ فيها ببقايا جثث لم تكتشف بعد.

فكـــرت أن أترك جثة للكلاب تتولى أمرها ثم أدفن ما تبقى منها. لكـــنهم قد يأتون ليبحثوا عنها. سيسألونني عن الجثة. أنا غير مسئول. هـــل أتركها للكلاب؟ سأزعم بأنها التهمتها بعد أن تحللت. سأزعق في وجوههـــم كيف تتركوني وحيدا مع جثة مثل هذه؟ كيف تتركون جثة في الطـــرق طـــوال هذه الأيام الأربعة؟ تنتفخ كل ساعة بمقدار نصف صاع، والملابـــس تمزقت من عليها. انفصلت الزراير وبرز الصدر مع جزء من البطن. لحم أزرق. والرأس تحول إلى كرة منتفخة.

لكـــن لمـــاذا هذه الجثة بالذات؟ والجثث الأخرى؟ لم يعد أحد يمر مـــن هـــنا أو يلقى السلام. فقط الأرواح التي تمر بي في هدوء وصمت. تـــروح وتجئ عبر الشارع الكبير. وتخرج أحيانا من الشوارع الجانبية إلـــى حيث لا أدرى. فالجثث ليست في المقابر فقط، أجدها في أي مكان، إمـــا محشـــورة بيـــن الأنقاض، أو تعطى نفسها لضوء الشمس فجأة وكأنها تكشف عن نفسها تحت الضوء فور وقوع عيني عليها.

لـــو هاجمني الموت وصحت مستغيثا لن ينفتح من أجلى باب من الأبـــواب، ومن الذي سيفتح لي؟، ولما هرع إليّ إنسان. لا يوجد في هذا المكـــان إلا اثنان، زكريا وقد كف عن الحضور، وإسماعيل لا يبقى معي كثـــيرا. من مكاني أستطيع أن أرى نافذة إسماعيل، أرى شبحه من بعيد

يـــروح ويجئ خلال النافذة، ألوح له بذراعي فيرد عليّ، وبعد قليل ألمحه فـــي طـــريقه إليّ. بيت زكريا يقع في قلب الحي. للوصول إليه لا بد من عبور الكثير من الشوارع الضيقة والمسدودة والدروب التي لا تخلو من أنقـــاض تجبرنـــي علـــى تســـلقها. إسماعيل يستطيع أن يرى من مكانه الشـــارع ومن يمرون فيه، لكنه لا يستطيع أن يخرج إلى الشرفة الغربية وإلا عـــرض نفســـه للمـــوت. زكريا بالنسبة لي غامض، بقدر ما أفهم إســـماعيل بقـــدر ما يبدو لي زكريا غامضا. بيته معزول ولا أحد يقطن معـــه علـــى امـــتداد الحـــارة التـــي يسكن فيها. من خلفه وأمامه بيوت مهجورة وبيوت تحولت إلى أنقاض.

أمـــد بصـــري علـــى طول الشارع الذي اصبح قليل المنازل وقد تعـــرى مـــن الظـــلال، فـــلا أجد أحدا يناديني أو يعبر بي. هياكل البيوت المـــنهارة تتوالى على جانبي الشارع، مهجورة، موحشة. بداية الشارع تـــتفرع من الميدان الكبير الذي لا يبدو من مكاني، نهايته لا أستطيع أن أقـــترب مـــنها، فعند تجاوز الانحناء الأخير ربما تواجهني طلقة رصاص واحـــدة تلقيني كالجوال وسط الطريق، فلا أجد من يوقف نزيفي ولا من يزيحنـــي جانبا، فأكون كهذه الجثة، كتلة صماء سرعان ما تنتفخ وتنفجر وتنبعـــث رائحتها الكريهة، وقد أجد نفسي ملقى في الترعة التي نصفها ماء ونصفها طين.

فـــي نهاية الدهليز المعتم، وأنا جالس على أرضه الرطبة، فقدت الإحســـاس بجسدي وأحسست بنفسي في الدهليز، داخل فيه وليس خارجا عـــنه. شعرت بأني جزء من الجدران التي تحيط بي، وأنها تتنفس وترى

مثلى لكنها لا تتحرك. أحسست أن في مقدرتي البقاء في مكاني، في العتمة، عشرات السنين أرى وأتنفس وأعي دون أن يعثر عليّ أي أحد، ودون أن أتحرك من مكاني، لا أشعر بالعطش والجوع، أفكر حيث لا أوجد، وأكون موجودا حين لا أفكر. وكما عرفت ما كان وما سيكون، يكون عالمي هو العالم الأول والأخير.

أحسست بيد زكريا تضغط على جانبي. سألني هل سيحتمل؟ كنت أخبرتهم بشأن الدهليز وتقابلنا فيه في ذلك اليوم. انتظر الآخرون إجابتي، قلت ما دمت اطمئن إلى هذا المكان فلتطمئنوا أنتم أيضا. بعد قليل تنفس زكريا بعمق وابتعدت يده في لحظات الهدوء، لكن جسمه ظل ملتصقا بي. تسللت رائحة البارود إلى الدهليز، سعل أحدنا فتبعه الآخرون بالسعال. العيون تلتمع في العتمة، مصوبة نحو فتحة الدهليز. ثمة غبار قاتم اللون يحجب الشمس عند الباب الخارجي.

قال إسماعيل ــ إنهم قريبون جدا.

لكزت كتفه بكوعي.

قلت له ــ أعصاب زكريا تالفة.

مال إسماعيل على أذني وهمس ــ يقال أن عنده امرأة في البيت.

قلت ــ زوجته؟

قال ــ لا.

قلت ــ أخته؟

ــ ولا أمه.

قلت ــ رأيتها؟

قال ـــ لا ولكنى سمعت، ووقع في يدي دليل.

قلت ـــ أين هو؟

قال ـــ رددته إليه فهو ليس من حقي.

قال واحد في الدهليز ـــ إنهم خلفنا، في الشارع الخلفي.

ســـمعنا طلقات مدفع رشاش بعض الوقت ثم صوت انفجار. عادت يد زكريا تتشبث بذراعي.

قلت ـــ اهدأ يا زكريا.

قال كلاما لم اسمعه.

قلت ـــ قل ما يصيبك يصيبنا يا زكريا.

واصـــل المدفـــع الرشـــاش انطلاقـــه. تناهى إلى سمعنا صوت غليظ هز الأرض مـــن تحتـــنا.تقابلـــت عيونـــنا فـــي العتمة. قال أكثر من واحد : دبابـــات. قفـــز واحـــد مـــن مكانه متجها ناحية فتحة الدهليز. امتدت يد وقبضت على طرف جلبابه:

ـــ ابق هنا.

ـــ دعه يذهب ليرى.

ـــ هناك آخرون في الخارج ومعهم سلاح.

ـــ كيف تواجه دبابة..بجلبابك؟

ـــ هل نبقى أم نخرج؟

ـــ إلى أن؟

ـــ لا يقف في طريقها شيء، ستقتحم الحائط وتدهسك تحت جنزيرها.

ســـاد الصـــمت برهة ثم سمعنا هدير محركات تبتعد. مددت يدي

ولمست كتف زكريا.

قلت — سينتهي كل شئ.

قال — أريد أن أخرج.

قلت — ليس الآن، إلى أين تذهب يا زكريا؟

التفت ناحية إسماعيل. لمحت أسنانه البيضاء. ملت عليه.

قلت له — لماذا تبتسم يا إسماعيل؟

قال — يريد الذهاب إليها.

قلت — إذا كانت موجودة فمن حقه أن يقلق عليها.

قال بخبث — من هي؟

قلت — تلك المرأة التي تدعى بوجودها.

— موجودة.

قلت — إنه لا يخفى شيئا عنا.

قال — هذا ما يحيرني.

عدن وقلت له — إنها ليست موجودة، إنها أوهامك وحاجتك إلى امرأة.

قال — ملابسه التي غسلتها له الأسبوع الماضي.

قلت — ما لها؟

قال — عثرت فيها على أشياء لا تخصه، قطعة من الملابس لا يرتديها الرجال.

قلت — وماذا فعلت بها؟

قال — غسلتها مع بقية الملابس ولم أذكر له شيئا بخصوصها.

قلت — ربما تكون قديمة.

قال — لا..لقد شممتها، رائحة العرق طازجة.

تـــرددت في مصارحة زكريا. كدت أسأله لماذا لم يصطحب المرأة معـــه إلـــى الدهليز، مهما كانت هذه المرأة بالنسبة إليه. وعندما نظرت حولـــي ورأيـــت اكـــثر من عشر وجوه مترقبة متوترة، أحسست بمدى صـــعوبة هـــذه الفكرة.إسماعيل وحده هو الذي يستطيع أن ينشر الخبر بيـــن الجميع. إسماعيل الذي يغسل ملابسنا نقابل النقود والسجائر وعلب الطعـــام المحفوظـــة. تخيلت إسماعيل وهو يسأل زكريا عم إذا كان لديه ملابـــس أخـــرى ليغســـلها له، فـــيهز رأسه نافيا. الماء الذي نحتفظ به للشـــرب فقط. إسماعيل يجمع ملابسنا، ومعظمها داخلية، في صرة كبيرة يلقيها على ظهره، يتسلل بها إلى الترعة التي تعترض نهاية الشارع.

يقول إسماعيل أنه يخاطر من أجل نظافتنا، وحتى لا يأكلنا القمل. الـــترعة فـــي مـــنطقة مكشـــوفة وقريبة من الخطر. من السهولة رصد إســـماعيل واطلاق الرصاص عليه.عند حافة الترعة المنخفضة يستطيع إســـماعيل أن يـــأخذ أنفاســـه بعـــد أن يستقر في أحد التجاويف الطينية بالقـــربَ مـــن المـــاء الضحل، ثم يكوم ما معه على الأرض وتبدأ اعجب عملـــية غســـيل بـــدون صابون في ماء قاتم من كثرة ما يحمل من طين ورواســـب عائمـــة. يبقى قطعة الملابس في الماء لوقت معين، وبعد أن يعتصـــرها ينشـــرها على الأرض لتجف فتصبح الملابس جافة ويابسة، فيخلصـــها مـــن الطيـــن بدعكها وبرمها. وكنا نتقبل هذا راضين، فماء الـــترعة يخلـــص ملابســـنا من رائحة العرق، وإن كنا نشم فيها رائحة الطين.

التفـــت إلـــيّ إســـماعيل وقلـــت ـــ إنك لن تستطيع الذهاب بملابسنا إلى

هناك؟

قال ـ سأذهب.

قلـت ـ سـتعرض نفسـك للخطـر، نتحمل قذارة ملابسنا حتى تتضح الأمور. ولما سكت..قالت ـ طعامك وسجائرك عندنا.

الهمســات والهمهمــات تملأ جوف الدهليز. كل واحد منا يحدث جــاره بصــوت خفــيض، لــيس من أجل ألا يسمعه الآخرون، بل حتى يســتطيع أن تلــتقط أذنــاه أدق الأصوات في الخارج. سكتنا معا. اقترب هدير المحركات يصحبه طلقات مدفع رشاش..

ـ قال صوت ـ لقد عادوا.

نشــبت المعــركة فــي الشارع الخلفي. ارتجت الأرض من تحتنا والجــدران تســاقط منه الطلاء القديم، وثمة انهيارات داخلية في الجزء الــذي يقــع وراء نهايــة الدهلــيز. تحركت الحجارة من أماكنها، بدأت تتساقط وتنهار.

عادت إلينا رائحة البارود والحديد المحترق اكثر نفاذا.

نهنه زكريا ـ كان يجب أن تتركني أغادر هذا المكان.

ربت على رأسه الذي دفنه بين ساقيه المضمومتين.

قلــت ـ أســكت يــا زكريا لن تجد أفضل من هذا المكان وليس لك ما تخشى عليه في الخارج.

اهــتز رأسه تحت يدي. توقعت أن يعترف لي بسره، لكنه لم يذكر

شـــيئا. ربما كان يراجع نفسه وسأل عما إذا كنت جديرا بالاحتفاظ بسره الدفين.

قلت ــ من العيب أن يروك تبكى.

أحسســـنا بالســـقف يســـقط فوقنا، فوق رؤوسنا على أثر فرقعة شـــديدة صـــمت بعدهـــا كـــل شئ لفترة، سمعنا بعدها وقع أقدام تخطو بسرعة في الشارع، وحفيف ملابس خشنة.

رأيـــنا السيقان تعبر من أمام بوابة الدهليز ثم تعود وتتوقف عن الخطـــو أمامنا دون أن تستقر الأقدام على الأرض تماما. سراويل قاتمة تضـــم أطـــرافها أحذية ضخمة ذات رقاب طويلة. كانت تبعد عنا بمسافة قصـــيرة جـــدا هـــي مدخل الباب وممر الدهليز الذي نختبئ فيه. حدد لنا الضـــوء الخارجـــي أربعة أجساد تندفع بسرعة إلى بوابة الدهليز متجهة نحونـــا. تجمدنا في أماكننا وتوقفت أنفاسنا. شممنا رائحة غريبة علينا. كـــنا نـــراهم بوضوح، ملابسهم القاتمة وخوذاتهم الملتمعة المقوسة عند الأذن وأحذيـــتهم الثقـــيلة وأســـلحتهم السريعة الطلقات في أيديهم، وثمة أشـــياء أخـــرى معلقـــة في أحزمتهم كانت تصدر أصواتا كلما تحركوا. أنفاسهم متلاحقة.

اكتشـــفنا أنهـــم لـــم يرونا ولم يشعروا بنا. كانت ظهورهم نحونا وأســـلحتهم مصوبة نحو المدخل. من خلف ظهورهم رأينا سيقانا أخرى تعـــبر بســـرعة مـــن أمـــام البوابة. ببطء وحذر التفت كل واحد منا إلى الآخـــر، أدركـــنا جمـــيعا أن لا خـــيار لنا. أحسست بعروقي وهى تنتفخ

ممتلـــئة بالدمـــاء، وبنـــبض قلبي في صدري وفى صدغي وفى رسغي، ورجفة أخذت تهز كل أعضائي.

فـــي حـــركة واحـــدة قمـــنا من أماكننا وقفزنا عليهم. إن لم نفعل فســـوف يفعلـــون هم. لم أعد أشعر أو أسمع إلا بهدير الدم في عروقي. اهـــتزت جـــدران الدهلـــيز مـــن ثقل الأجساد المندفعة المتضاربة، من اصـــطدام الأيـــدي ببعضـــها البعض ومن ارتطام الحديد باللحم والعظم. اختلطـــت الأقـــدام بالأقدام ،والأذرع بالأذرع ولم تعد هناك مسافة لتمتد فـــيها ماســـورة الســـلاح لـــتطلق الرصـــاص. التمعت نصال السكاكين والخـــناجر والسناكى، تخرج من أماكنها لتغوص ثانية من خلال الملابس فـــي ثنايا اللحم فتصطدم بالعظم، تمتد أكف وتلتف أصابعها حول النصال فتثلمها وتنتزعها بدورها مغسولة بالدم.

هويـــت بقبضـــة يـــدي على الخوذة فانزلقت إلى جانب بينما راح يقاومنـــي محـــاولا أن يزيحني من فوق ظهره. أربكته المفاجأة في هذا المكـــان المعتم. لم أنتظر. ارتميت بثقلي على سلاحه الذي لم يستطع أن يـــرفعه. انـــزلق السلاح من يده لكنه استطاع أن يحتفظ به، قبضت على الســـلاح في وضع لم يمكنه من استخدامه، وفى محاولته للسيطرة على الســـلاح ضـــربته فـــي جنبه، استدار فرأيت عينيه وهو يحملق بهما في العـــتمة، كانـــت تحت تأثير ضوء الشمس في الخارج، لا يرى بهما شيئا في عتمة الدهليز.

ولبرهة أحسست أنه ابتعد عنى وأن في إمكانه أن يشهر سلاحه

ويقــذف بالطلقات في كل مكان. تدحرجت على الأرض واحتضنت ساقيه وجذبــتهما بقــوة فسقط بجانبي، ولا أعرف هل هو نفس الجندي الذي التحمــت به أم هو واحد آخر. كنا نتلاطم في تزاحم شرس، وفى سرعة من يريد أن ينتهي من خصمه قبل أن يدركه الموت.

لــن أستطيع أن أتغلب على جندي مدرب أترك له نفسي ليذبحني أو أفــر من الدهليز لتقتلني رصاصة لا أراها أو شظية. أسأل نفسي وأنا أقــاوم، استمر، لقد تشاجرت مع رجال من قبل، قاومه ولا تجعله يتمكن مــن غــرز خنجره في صدري أو ظهري، لا تعطيه الفرصة للتمكن من ماســورة سلاحه. وجدت نفسي ملقى فوقه أكيل اللكمات في الرأس وفى الوجـــه، يخمشنى بأظافره فأحس بالدم على وجهي. ملابسه خشنة وعند الوســط حــزام جلدي عريض تدلت منه أكياس مختلفة الأحجام. دفعني بقــوة ذراعــيه من فوقه، وجدت نفسي أتطوح وأصطدم بجدار الدهليز، بســرعة قبضــت أصابعه على يدي وجذب نفسه إليّ. وضع ركبته فوق صــدري وهــوى باللكمات على وجهي. لمحته وهو يخرج السكين من حــزامه الجلدي. كانت الرؤية متعذرة بالنسبة إليه وكنت أريد أن أتخلص مــنه قــبل أن تــتعود عيــناه الــرؤية في عتمة الدهليز. كنت ملتصقا بــالجدار، وعــندما هــوى بالســكين نحوى ارتطم حده بالجدار وواصل اندفاعه ناحيتي. أدخلت رأسي بين ساقيه وأفلت جسدي من ضغط ركبته فأخــتل توازنــه وارتمــى على جانبه. قبض بساقيه على رأسي وضغط بهمــا ضغطا شديدا حتى كدت أن أختنق. أحسست بعروقي تكاد تنفجر، عاجــزاً عن التنفس وأدركت بأن لحظتي قد أتت، وانه سيضرب ضربته

الأخـــيرة القاتلـــة. كان يواصل الضغط ويداه تتحسسان الأرض بحثا عن السـكين الـــذي أفلــت منه. مددت يدي وقبضت عليه من أسفل، شددت قبضـــتي وســمعته يئن، حاول التخلص من قبضتي، تعلقت به وضغطت أكـثر، أخـذت ســـاقاه تخففــان الضغط قليلا قليلا من حول رقبتي حتى خلصتها. ارتمى على بطنه، قفزت فوقه شاعرا بالدم يعاود الاندفاع نحو رأســـي، لففــت ذراعـــي حول عنقه، أحسست به ضعيفا، شعرت بنبض عـروقه تحــت أصـــابعي، خيل إليّ أنه عنق طفل، واصلت الضغط، كان يلهــث، يــبدو أنـــه كان يستسلم أو كاد يشعر بالاختناق في مكان غريب علـــيه، لـــم يــتوقع أن يجد نفسه فيه، مكان لم يتوقع أن يجد فيه أحدا عــندما لجأ إليه. ظهره صلب، تقوس ظهره من تحتي، ارتفع إلى أعلى مقاومـــا ثقلي، حاول في إصرار أن يرتكز على ذراعيه، فشلت محاولته، ارتخــت ذراعـــاه وارتطـم رأســـه بـــالأرض، حاول أن يستدير، منعته بقبضتي، رأيت جانب وجهه، اللعاب ينسال من فمه والعينان جاحظتان. امــتلأ الدهليز بضوء ساطع، رفعت رأسي وخفضته بسرعة مغلقا عيني، وكان ثمة رجال يندفعون نحو الداخل، توقفت خطواتهم بالقرب مني.

ســكنت الأصـــوات، وانســحبت الشمس من فوق الشارع الكبير والشـــارع المـــوازى له من الناحية الأخرى. توارت خلف ركام البيوت المهجـــورة وتســللت أشـــعتها من الشوارع الجانبية الضيقة والحارات الجانبـــية، ومــن خلال الثغرات والشقوق والسقوف المتهاوية في صف البـــيوت والجـــدران المتبقـــية على طول الشارع الموازى للشارع الآخر الذي أقطن فيه.

اخـــتلط الدخان المنبعث من الدهليز بالأشعة الصفراء بذرات دقيقة كثـيفة مـــن الـــتراب الممزوج بغبار البارود وبقايا الرماد المتطاير الذي بعـــثرته دوامات خفيفة من الهواء الساخن. امتدت ظلال الجدران وغطت المســـافة بعـــرض الشـــارع، أطلال باهتة مغبرة استطالت أسفل الأشياء والجثـــث والعربات الملقاة المقذوفة المبعثرة في الشارع، ودبابة قاتمة اللـــون بقـــى مدفعهـــا الرشاش وحيدا في أعلى البرج يكاد يلمس شرفة الـــدور الأول المحطمـــة، فوهة مدفعه منكسة إلى اسفل وخزانه الأسود المستطيل مرفوع إلى أعلى.

اختلطـــت رائحة الحديد المحترق برائحة كاوتش الدبابة المنفصل عـــن الجـــنزير المطروح على الأرض مع أجزاء أخرى من قطع الحديد المنصـــهر وقطع خشبية وحجارة وتراب. في وسط الشارع تجمعت بركة مـــن زيـــت الدبابـــة والـــدم الدافئ تسرب من أسفل الدبابة، بركة داكنة لـــزجة. تصاعدت رائحة لحم محترق ممتزجة برائحة الملابس المحترقة. تدلـــى جســـده مـــن فتحة البرج يرتدى سترة داكنة ذات أزرار نحاسية، تصـــاعدت مـــن وراء الظهـــر المنحنى دخان ذو رائحة ثقيلة، وسقطت الخـــوذة مـــن فوق الرأس على الأرض بجوار طبنجة سوداء. ظهر شعر الـــرأس مهوشا مغبرا تتدلى منه خصل فوق الحاجبين، حاجبين مقطبين وشـــفتين مذمومتين متقلصتين. الذراعان متدليتان، وفى الساعد الأيسر لاح المعصـــم الذي انحسر عنه كم السترة، أبيض تزينه شعيرات ذهبية، وســـاعة يـــتحرك في مينائها العقرب الكبير. الكفان ذاتا الأصابع الطويلة المثنـــية تلمســـان نجمـــة داود المرسومة على جدران البرج الحديدية.

ماســورة المدفــع طويلـــة منحرفة إلى جانب وقد تحطم الجدار المواجه لفوهـــة المدفع. فوق الحجارة المتناثرة قاذف بلا قذيفة ما زال ساخنا تقــبض علــيه ذراع شــبه مفصولة عن جسد غارق في الدم. اخترقت الوجــه شــظية مــن قــنطرة الأنف نافذة في عظام الوجه وبدا طرفها الخارجــي ملــتمعا بقايــا أشعة الشمس الغاربة. بقيت العينان مفتوحتين جامدتيــن تجــاه ســماء مليــئة بالدوائر الدخانية. في الجزء السفل من الجسد تدلت القذائف المعلقة بحزام يلتف حول الوسط، والساقان أحدهما فــوق الأخــرى وســروال ممزق لا يحوى إلا خليطا من عظام الساقين واللحم والدم.

بالقــرب مــن الدبابــة، في اتجاه الشارع الجانبي الذي يقع فيه الدهلــيز، آثــار أحذيـــة ضخمة ذات تعاريج شبه دائرية ملطخة بالزيت والــدم، تمــتد فــي الشــارع الجانبي، تنحني في خط سيرها حتى الباب الحديدي للدهليز، عند المدخل أو بعدها بقليل، وعلى امتداد ممر الدهليز اســتلقت الأجســاد غارقــة في دمائها، وعلى ضوء كشافات قوية لاحت أجســاد بملابس داكنة مغبرة وأجساد ترتدى السراويل الملونة والجلابيب البيضــاء التي لوثها الدم. لم اعثر بين الأجساد الملقاة على إسماعيل أو زكــريا، كانــت كلهــا لجــيران يقطنون في المنطقة التي تحيط بالشارع الكبير.

قبضــات متشــنجة، أعــناق مزقــتها الأظافر وتعمقت في اللحم، أســلحة أوتوماتيكــية وقــنابل لــم تنفجر بعد ملقاة بجوار الأجساد ذات الملابــس الداكــنة. خوذات وأحذية وعصى وأعضاء مختلفة.وجوه ذات

عيون مغلقة وعيون مفتوحة وعيون مفقوءة. سكاكين وخناجر وسناكى ودمـــاء تسـيل علـــى الأرض وعلـــى الأجساد وتحتها وعلى الجدران. رؤوس غريـــبة تـــتقابل مـــع رؤوس لأعرفها جيدا تحدثت معها. أكتاف وأقدام ورائحة بارود خانقة تم جو الدهليز.

انحـــدرت الشـــمس أكـــثر ناحية الغرب واقتربت من قمة الجبل، اختلطـــت الظلال بظلمة خفيفة. كانت ثمت متاريس وخوازيق ألقيت أمام الدبابـــة الزاحفة والتي احترقت فأوقفت ما بعدها. شعرت بيد توضع على كتفـــي، وحيـــنما التفت وجدت إسماعيل..قال لي أن هجومهم فشل وأنهم ســـيبقون خـــارج المدينة وان طاقم الدبابة المحترقة أبيد ما عدا واحد يبحثون عنه.

قلت ــ أين الآخرون؟

قال ــ لم يتبق في هذا المكان إلا نحن.

قلت ــ وزكريا؟

قال ــ مجروح، أعصابه تالفة، كان يبكى.

طـــال انـــتظاري مســـاء ذلـــك اليوم. لم يأت أحد. نافذة إسماعيل مغلقـــة ولا أثر للضوء هناك. فكرت في زكريا، ربما ذهب إسماعيل إليه ليطمئـــن علـــى جرحه. لماذا لم يمر عليّ حتى نذهب معا؟ تخيلت زكريا وهـــو يـــبكى. الـــرجل الذي يبكى ليس طفلا. بكاء الرجل ليس هو بكاء الطفل أو المرأة. بكاء الرجل يزلزل الأرض يصيبني بالخوف والاكتئاب.

اقـــبل الليل ومعه صمت غريب يختلف عن صمت الليالي الماضية

المظلمـــة. أحتاج لوجود الآخرين بجواري. هذا الشارع لم يعرف الصمت أبــدا. بعد منتصف الليل تبقى أعمدة النور مشتعلة تنير الطريق للذين لا يــنامون وتظل المقاهي ساهرة مع رواد الليل، وأصوات النرد والدومينو تفرقع في إيقاع رتيب حتى حلول الفجر.

اخــتفى جسدي في الظلام الدامس، لا أرى موضع قدمي. انحصر وجــودي فــي أنفاسي وفى حدقتي العينين وقد اندفعت من خلالهما قوة بصــرية مركــزة تلــتقط أي بارقــة ضوء على البعد. تخدعني شرارات الضــوء المنطلقة من عيني..في الظلمة أظل أراقبها وقتا طويلا، أتتبعها وأنــا مســتلقى حــتى يأتــي النوم. تتحول شرارات الضوء إلى أطياف وأشــباح، أطــياف ناس أعرفهم، أطياف شوارع قديمة تموج بالحركة، بــيوت تعج بالنساء والأطفال، سماء زرقاء، طيور وحيوانات، برك ماء، طيــن، مطــر، سيقان عارية، سيارات مشحونة بالركاب، قطارات تسير وسط المدينة، بيارق، أبواب مفتوحة يتدفق منها الناس.

أغمــض عينـــي، اســتدعى مــن أريد، شبيك لبيك أرني زوجتي وطفلـــي، أرنـــي حجرتـــي القديمة، أرني محمود وهو يلقى إحدى نكاته ويضــحك علــيها. شــبيك لبيك أرني شارعا مزدحما بالناس، أرني سلم البيــت وأطفــال الجــيران يلعبون عليه، أرني حنفي وهو يطارد زوجته بقميصـــها الداخلـــي ليضـــربها، أرني ثانية الكدمات على كتفها الأبيض وعلـــى ذراعيها الممتلئتين الجميلتين رغم الضرب. شبيك لبيك، أعطني مكانـــا هادئا كنت فيه ذات يوم، مكانا ضحكت فيه، مكانا بكيت فيه، مكانا أحببـــت فـــيه حبا صادقا، أعطني صديقا عزيزا فقدته، أعده لي، أشعرني

بالأصـوات الآدمـية وراء الأبـواب الموصـدة، أحسسنى بأجسادهم، بالزحام يضغط على صدري وظهري.

وجوه مفتوحة الأشداق، تضحك تصرخ. وجوه منقبضة متقلصة، منـتفخة العـيون، تبكى تتألم. أذرع ممدودة، أصابع متشنجة. قطع من الحجـارة ملوثـة بلون الدم القاني، بقايا أبواب ونوافذ ودواليب وحقائب وشـظايا زجاجـات وأكواب، أحذية قديمة، صحف قديمة، تواريخ قديمة كراسات مدرسية ممزقة وثياب بهتت ألوانها.

ذهـب إسـماعيل إلى زكريا بمفرده. إسماعيل يريد أن يعرف سر المـرأة التـي يـتوهم وجودهـا عنده. لن يستريح إلا إذا رآها وعرف حكايـتها مـن زكريا. قال إذا لم تكن زوجته أو أخته أو أمه فلماذا تكون له وحده وكلنا نتشارك في كل شئ.
يـا إسـماعيل أسـكت لا تأثم في حق زكريا والمرأة التي معه. قال أين وجدها، ولماذا يخفى أمرها عنا؟
أتركه وشأنه.
أليس هو في حاجة إلينا؟

فـي الظـلام اتخـذت طريقي إلى بيت زكريا، كان الطريق وعرا. اتكـأت على عصاه ودلفت إلى جوف الدروب الخلفية المظلمة. إسماعيل يسـتطيع أن يغامر، جف الخوف في قلبه. لا أحد غيره يجرؤ أن يقترب مـن الترعة ويعرض نفسه للخطر. خفيف الحركة لا يسمع له حس. لم يكـن ثمة ضوء، وكنت أسمع صوت الفئران والسحالي وهى تمرق بين

الأحجـــار، بينما كانت الكلاب تفسح لي الطريق بمجرد أن تشم رائحتي. كنـــت أعـــد خطواتـــي واحد اثنين ثلاثة ثم انحنى، واحد اثنين ثلاثة ثم اعـــتلى ركامـــا مـــن الـــتربة والحجـــارة تسد الطريق، واحد.. أربعة.. خمســـة.. ثم أنفذ من بوابة إلى الشارع التالي، ثم ممر ضيق يخترق بيتا مشـــطورا إلى نصفين. واحد اثنان، اصطدمت بعائق لم أتوقع وجوده في ذلـــك المكان، تحسسته بعصاي فإذا به سور من الخشب، تحسسته بيدي وتلمســـت رؤوس المسامير. من أين أتى هذا السور، وفي أي مكان أنا؟ هـــل أحاط زكريا بيته بها السور؟ قطع خشبية عريضة مثبتة في أعمدة غلـــيظة مغروزة في الأرض. سرت بجوار السور أبحث عن منفذ. فقدت معرفتـــي بالمكان، لا بد أن أعود من حيث بدأت لأبدأ من جديد في اتجاه آخر. كان يجب الانتظار حتى الصباح.

مـــا الـــذي حدث في هذه المرة؟ وكيف أخطئ الطريق وأنا أعرفه جـــيدا؟ بعـــد قليل اكتشفت أنى ابتعد عن المكان الذي توقفت عنده، كلما ابـــتعدت عـــن الســـور أجدني أعود لأصطدم به ثانية. انتزعت قطعة من خشـــب السور، ومن الثغرة رأيت الظلام أيضا. لم أتبين ما إذا كان هناك حـــائط أم فـــراغ معـــتم. بعد قليل ألتقط بصري ومضة ضوء سرعان ما ذابـــت واختفـــت. نزعت قطعة أخرى من الخشب وأصبحت الثغرة تكفى لمـــرور جســـدي مـــن الســـور. لبرهة أحسست أن عينا ترقبني، وأن الومـــيض الـــذي رأتـــه لم يكن إلا هذه العين. تذكرت الجندي الفار. من يـــدرى قد يكون مختبئا في هذا المكان، ربما كان يتبعني ليقضى عليَّ. نفـــذت مـــن الـــثغرة وأعطيت ظهري للسور. عاد وميض الضوء يلوح

أمامـــي، تحركـــت إليه لكنه كان يختفي. حبست أنفاسي وانتظرت. كدت أنـــادى على زكريا بصوت مرتفع، قد يسمعني فيأتي لإنقاذي ويدلني على الطـــريق. ومضة أخرى من الضوء لم تنطفئ، بدت كشعلة عود كبريت. اقتربـــت منها في حذر..من أنت؟ انعكس وهج الضوء الضئيل على طيف آدمـــي يقف بلا حراك. مددت يدي: من أنت؟ هل أنت زكريا؟ لمست يدي العـــنق وعندما هبطت إلى أسفل إذا بي ألمس جسما عاريا دافئا. هل أنت إسماعيل؟ استدار إليّ، أحست به يرمقني، الصدر، البطن.

هـــل أنـــت زكـــريا؟ تجمدت يدي فوق الجسم العاري، مددت يدي إلـــيه..من أنت؟ إنني أبحث عن زكريا، لم أقصد أن، بالطبع.هل أنت هو؟ كـــان يجـــب أن احضـــر فـــي الصـــباح، أردت الاطمئـــنان عليه، فهو مجـــروح..إذا كنـــت أنـــت هـــو، أو، إســـماعيل، فإنني كما تعرف، كما تعـــرف..الشـــعر الطويـــل يستقر عل الكتفين، الجسم عار وحار، البطن مكـــور ولمســـه اكثر نعومة ، الخصر نحيل يرتكز على عجيزة ممتلئة، ارتفعت يدي إلى الصدر قبضت أصابعي على ثدي امرأة ممتلئ ودافئ.

شـــعرت بأنفـــاس حارة تلفح وجهي، وبشيء يدخل فمي فإذا بي أمضـــغ أشواكا. ينبثق من بين شفتي سائل أحمر ذو طعم لاذع. أمسكتنى مـــن ذراعي قبضات ناعمة، قبضات قوية، لم تؤلمني لكن معي ضغطها هـــبط جســـدي إلـــى الأرض. ركعت على ركبتي وانحنيت بصدري إلى أســـفل، إلى التراب، بدفعة هينة انقلبت على جانبي ثم على ظهري، بقيت هكذا وقتا بعدها شعرت بسترتي تنزع عنى ثم قميصي وفانلتي الداخلية وأخـــيرا الحـــذاء والســـروالين الخارجـــي والداخلي. تمددت عاريا على

الــتراب. شـــعرت بمن يدلك لي جسدي: الرأس والوجه، العنق والصدر والبطــن، ما بين الفخذين حتى نهاية الساقين. شعرت بجسم ناعم يتمدد علـــى جســدي ويضغط، وبرفق انقلبت على وجهي وشعرت بضغط ثقيل علـــى ظهـــري وردفـــي وفخـذي. عدت ثانية أنام على ظهري وتكررت العملية.

شـــعرت براحة عجيبة، تمنيت أن أغوص تحت التراب، لم تعد بي رغـــبة فـــي القيام. حفنة من التراب تلقى على وجهي، حفنة أخرى على الصدر، على الجسد كله، إنهم يدفنونني.

تسلل الغبار إلى أنفى وكانت بقعة من ضوء الشمس تستقر على وجهـــي، تدغـدغ عيني. كان ضوء الشمس في الصباح غريبا مصبوغا بحمـــرة خفـــيفة. رأيـــت إسماعيل ينتظرني، نظرت إليه مليا، هز رأسه وابتســـم. قلـــت لـه أريـــد أن أشـــرب. ناولنـــي وعاء الماء، ثبت عيني فيعينيه وأنا أشرب.

قلت ــ إسماعيل..لماذا لم تأخذني معك إلى زكريا؟

قال ــ لم أذهب إليه

قلت ــ أين كنت بالأمس يا إسماعيل؟

قال ــ كنت نائما..لم أخرج.

اقترب منى وأراح ذراعه على كتفي.

قـــال ــ دعـــك مما أنت فيه، كدت أذهب إلى الترعة، عندي كومة كبيرة من ملابسكم الوسخة لكنى لن أذهب الآن وحتى يخرجوا الجندي الهارب من مخبئه.

أحسســت أن إســماعيل يخفى عنى سرا عرفه عن زكريا، أو هكذا خيل إليّ.
فــي هذه الليلة أو في الليلة التالية سأذهب وحدي، سأعرف ماذا يجرى هناك، وأي امرأة هذه؟

انطلقــت رصاصــة تردد صداها في الفراغات والفجوات. أرهفت ســمعي. أشار إسماعيل إلى البيوت التي تقع خلفنا، التصق بالحائط، قال أن الطلقــة لــم تــنطلق مــن ناحية الترعة. قال لي أن أبتعد، رصاصة طائشــة لا تقصــدك لكنها تقتلك. لا تعبر الطريق، إنهم يطاردونه الآن. ظــل مختفيا في حجرة مهجورة حتى حاصره الجوع. اختر الموت جوعا أو قــتلا. إنهــم يرصــدون الحركة من هناك. يتصنتون على وقع قدميك فــوق الأرض. يعرفون أوقات صحوك ونومك. يحصون أنفاسك ولهاثك، موجودون هناك كظلك، يعرفون رغباتك قبل أن تعرفها.

المطــاردة داخــل الحواري وبين الأنقاض والبيوت المفتوحة بلا أصحاب، يلعبون الاستغماء، من يمسك الآخر يقتله.

هــرولة الأقــدام تقــترب من الشارع الرئيسي، إيقاع الأقدام، ضــرباتها علــى الأرض أصبحت أكثر وضوحا وثقلا فوق الإسفلت. لاح مــن وراء الحــائط، فــي لون الغبار، في لون الطوب والأنقاض، خائر القــوى، ما زال على رأسه ذلك القناع الذي يلف الرأس والعنق، نصف جســده العلــوي يتحرك هابطا مرتفعا، محنى الرأس وهو يجرى متخبطا بين أكوام الأنقاض والجدران المتهدمة، دفع بنفسه وسط الطريق، شبحا

قاتمـــا لاهثا يطبقون عليه من الجانبين، توقف عن الجري وتعلقت عيناه بـــنهاية الشـــارع حيـــث يرصـــدون حركتنا، لم يعد يرى شيئا، حدقتان مـــتجمدتان يائســـتان، خـــبطة واحـــدة فوق العنق ونصل حاد مندفع في الخصر، انهيار جسده وارتطامه بالأرض، سحبوه من ذراعيه.

مـــن بعـــيد أطلقوا مدافعهم الرشاشة على طول الطريق، تركوا الجـــثة واخـــتفوا، صحت فيهم أن يأخذوا الجثة معهم. حملقت في الجثة، بـــدت كتمـــثال من الطوب المغبر واقعا على الأرض، ضغط الصمت على أذنـــي وأنفاســـي، الجـــثة ساكنة وخيوط الدم تسيل على الإسفلت وتملأ الفجوات. رأيت الجثة تتحرك، ببطء شديد استندت على الذراعين وقامت علـــى ساقيها، الوجه قالب منحوت من الحجر، لا ملامح له، الصدر من الحجـــر والســـاقان والذراعان. أخذت الجثة تتحرك خطوة خطوة، امتدت ذراع ناحيتـــي مفـــرودة الأصـــابع، واصلت السير نحوى، اقتربت منى، رائحـــة الغـــبار ملأت أنفي، وقع الرأس ثقيلا مهشما على الأرض إلى قطـــع صـــغيرة مـــن الحجـــارة، انفصلت الذراعان على الأرض، تهاوى الصدر كتلا كبيرة متدحرجة تحت قدمي.

فـــي الصـــباح كانـــت الجثة أول شئ خطر على ذهني، انقشعت ظلمـــة اللـــيل وعادت الذاكرة بالجثة في ركن من رأسي تنتظرني. في ركـــن آخر بعيد مغلق ترقد جثة أخرى قديمة : شعرت بقبضة أبى القوية تعتصـــر يدي الصغيرة ابتعد يا ابني، ابتعد، تطلعت إليه كان طويلا كان هـــنا منذ ثلاثين عاما، راقب أبى الرجال المتسللين الملتصقين بالجدران حامليـــن العصي والهراوات. قبض أبى على يدي وشدني إليه : ابتعد يا

بني، ابتعد. لكنه تركني بالقرب منه أشاهد الرجال وهم يضربون بعضهم بعضـا بالعصـي والهـراوات ويسـقطون على الأرض مضرجين في دمـائهم. جذبني بعيدا حتى لا أرى الدم، صرخ فيّ : هيا اصعد إلى أمك. أخذتنـي فـي حضنها سألتها متى يتوقفون عن الضرب؟ ضغطت رأسي علـى صـدرها ومسحت على ظهري بيديها. سمعنا طلقة رصاص تدوي فـي الشـارع، في هذا الشارع، رأيت جنودا سود البشرة يمتطون جمالا عالـية يطاردون الرجال، في أيديهم كرابيج سوداء تئز في الهواء ودماء تنزف من جثة ضابط ملقاة وسط الشارع.

راحـت الغفـوة وجـاءت الصحوة، تمنيت أن أنظر إلى وسط الشـارع فـلا أجد الجثة في مكانها، تمنيت اختفائها، تتلاشى صورتها مـع أحداث تحولت إلى أحلام ، مع أحلام كثيرة نسيت تفاصيلها، لكنها موجـودة كمـا تركـتها بالأمس، لم تتحرك جثة الجندي من مكانها، لم يأخذهـا أحد أثناء الليل. الدم قشرة جافة ملتصقة بالإسفلت، الجثة تمثال سـاقط علـى الأرض ينتظر من يقيمه ثانية. اقتربت منها، درت حولها، خشـيت أن المسـها فـتدب فيها الحياة وتتحرك ، لا يبدو لي إلا الظهر والسـاقان والحـذاء الضخم والرقبة وهذا الدرع من القماش الذي يحيط بالـرأس. الجثة عبء ثقيل يحمله كل منا على عاتقه أينما يكون، سعيد كـل مـن يـتخلص مـن هذا العبء، البطن والصدر، الرأس والأطراف، الـرائحة والقـذارة. هذا الجندي هرب من الحصار والمطاردة، ترك لهم جثته وذهب.

السـترة مـن نسيج خشن، التصقت بها رائحة التراب مع الدم،

ثمـــة دوامـــة من الهواء أتت مع الصباح الباكر، ولا أحد غيرنا في هذا المكـــان ، كنســت الدوامـــة الشـــارع، دفعت أمامها غمامة من الغبار و الأوراق القديمة، أحاطت بنا ثم تجاوزتنا تاركة بعض ما كنسته حولنا.

لمـــس إسماعيل كتفي، لم أشعر به وهو يقترب منى، جاء زكريا معـــه، وقـــف خلفـــه، لـــم يقترب من الجثة. زكريا فقد كثيرا من وزنه، وجهـــه أصـــفر، أحاطـــت عينيه هالتان قاتمتان، امتصه الخوف، أنهكته المـــرأة، جـــزاك الله يـــا إسماعيل، الذنب في رقبتك، لم أسأله أين كان، ساعده الأيمن ملفوفة بالقماش لكنه يحركها دون ألم.

قال إسماعيل ــ هل سنتركها هنا؟

قلت ــ لم يأت أحد لنقلها.

أمسكناها من الذراعين وسحبناها إلى الشارع الجانبي.

قلت ــ إذا قابلوك يا إسماعيل فأخبرهم وإلا سندفنها في هذا المكان.

قال إسماعيل ــ ستتعفن الجثة وتجذب الكلاب.

قلت ــ قبل أن تتعفن نكون قد تصرفنا.

نظـــرت إلى زكريا، تذكرت ليلة الأمس، السور الخشبى، المكان المجهـــول. زكـــريا له صـــدر كثيف الشعر، جسد الرجل الذي لامسته لم يكـــن كذلك، موجود أم غير موجود؟ والجسد الآخر لمن هو؟ ذلك الجسد الـــناعم الدافئ؟ اخبرني يا زكريا عن الحقيقة، صارحني يا إسماعيل إذا كنـــت تعـــرف شـــيئا، عشـــنا معا الحلو والمر. أطرق زكريا برأسه إلى الأرض، هل أدرك أفكاري؟

قال إسماعيل ــ سأذهب إلى الترعة، الأحوال هادئة.

قلــت ــ لا تتركانـــي وقـــتا طويلا مع الجثة، إذا لم يأت أحد حتى الظهر تعالوا ندفنها.

أشعر بوجود الجثة، ما زالت موجودة، لم أعد أراها لكنها باقية وراء عينـــي، داخلهـــا، بعد قليل ستفوح رائحتها، ستطردني من مكاني، ســـتطاردني، نظــرة مـــنحرفة إلى زاوية الشارع الجانبي تكشف لك عن حــذاء ضخم، إنها في انتظاري تناديني، انجذب إليها، وجودها يجذبني، اقــترب، أقـــول لنفســـي فلنر الساق، هل هي هناك؟ ربما لا يوجد سوى الحــذاء، ربما كانت الجثة وهما من الأوهام التي تعيش في رأسك، ربما نقلوهـــا دون أن تـــدرى وتـــركوا لك الحذاء للذكرى..والباقي؟ لماذا لا أتـــأكد وأرى الباقى؟ الجثة هناك في المكان الذي وضعت فيه، تبدو أكثر انـــتفاخا، تزداد حشوا، الذراعان مدورتان منتفختان تملآن أكمام السترة، متصـــلبتان علـــى جانبي الجسد، انتفاخ البطن واضح، الحزام يعوق تقدم البطـــن وانطلاقهـــا، الـــرأس صار أكثر استدارة، العينان منتفختان. أنت تـــرى حلمـــا، كابوسا، لقد رأيت كثيرا من الكوابيس، هذه الجثة كابوسا أيضـــا، تحملـــه كمـــا تحملـــت الكوابـــيس الأخـــرى، اسألها إذا كنت لا تصدق..هل أنت كابوسا؟ هل ترين أمامك إنسانا أم جثة مثلك؟ ماذا تفعل وهذه هي حياتك؟

لا تضـــحك على نفسك، إن ما تراه هو الحقيقة، هو الواقع، كل ما تفكـــر فـــيه هـــو وهم، كل ما تحلم به هو حلم، الواقع أمامك، لا تخدع نفســـك، لا تخـــترع غـــيره، لا يوجد في العالم سوى هؤلاء الناس الذين تعـــرفهم واحـــدا واحـــدا ، لا توجد مدن أخرى وراء هذا الشارع، كل ما

تـــراه هـــو صـــورة طبق الأصل من هذا الحطام وهذه الأبواب والنوافذ المهشـــمة الملقـــاة تحـــت الطـــوب والتراب، صورة مكررة من البيوت الســـاقطة المهدمـــة على طول هذا الشارع والشوارع الخلفية والحارات والأزقـــة التي صرت تضل طريقك فيها. الزحام الذي تسمع أصواته داخل رأســـك وهـــم، الـــناس الذيـــن تراهم وأنت مغلق العينين وهم، الأطفال وأصـــواتهم وهـــم.. مـــن أين أتيت بهذه الأوهام؟ كيف تحلم بأناس لم ترهم وبأشياء لم ترها وبمدن لم تذهب إليها؟ إنك تخترع الأسماء لتجعل الـــناس والأشـــياء اكثر ألفة واقترابا منك. إذا كنت قد مللت الواقع فاحلم بمـــا تســـتطيع وقـــدر، تخيل وأنت هنا بجوار الجثة ما تريد، ستحلم بما لـــيس هو هنا ، سترحل إلى المدن الداخلية وتدخل وسط الزحام والسير وســـط الشـــارع دون أن تقتلك رصاصة، دون أن تشعر بالمطاردة وبمن يـــتربص بك، هيا ارحل إلى حيث شئت، لا تقل أنا رأيت هذا من قبل، قل أنـــا حلمت بهذا من قبل تلك الأصوات، هؤلاء الناس، من تريد بالتحديد، وأي الأشـــياء تجذبـــك مـــن واقعك لتلقى بك في حلم النهار هذا، الزحام يعوقـــك عن السير ، رائحة الناس تملأ أنفك، إنه طريقك الذي تعبره كل يـــوم فـــي الصباح وبعد الظهر وفى الماء، ها هي الأماكن التي حفظتها وصـــارت من معالم حياتك، صارت جزءا منك لا تستطيع التخلص منها. اللافـــتات الملونـــة علـــى الجـــدران، الدكاكين، العربات فوق الأرصفة، مظـــلات الخـــيش، النداءات، الوجوه المألوفة تمر بك تبتسم لك وتحييك، تبتســـم لهـــا وتلقـــى بالتحيات والسلامات. إلى أين أنت ذاهب؟ هذا هو شـــارعك، الفـــرن على ناصيته، أول شئ التقطته أذنك عندما ولدت كان صوت اللهب وحركة الطاولات وفرقعات العجين المخمر عندما يقلبونه.

عتـــبة البيت مرتفعة قليلا. تتنفس بعمق وأنت تدلف إلى الحوش الرطب وتصـــعد الـــدرج درجـــة درجة، وقبل أن تصل إلى الطابق الثاني ينفتح الـــباب وتظهـــر لـــك زوجة حنفي، تعرف خطواتك البطيئة فوق الدرج، تعرف ميعاد عودتك، تلقاها هناك في انتظارك وراء الباب، حنفي لم يأت بعـــد، تـــرى اللهفـــة فـــي عينيها، تفتح الباب قليلا وتبتسم لك وتدعوك للدخول.

ــ لحظة، لن تتأخر، أدخل.

ــ دعي الباب مفتوحا..

فـــي الصالة الداخلية يبدو كل شئ مرتبا ونظيفا، حنفي يتركها في الصـــباح الباكر ويعود بعد منتصف الليل، ينام دون أن تشعر به، يسلبها نومهـــا، يطلـــب طعاما أو يضربها. كنبة خشبية ومقعدان ومنضدة، في ركن الحائط صنبور مياه وحوض صغير ومرآة.

ــ اجلس.

تذوب الابتسامة وتمتلئ عيناها بالدموع، أنت أخي واكثر..

ــ ماذا الذي حدث؟

كشفت عن كدمة في ذراعها، البشرة بيضاء ولكدمة زرقاء.

ــ ضربني أيضا على ظهري..

اقتربـــت منى، أعطتني ظهرها وكشفت عن ظهرها الأبيض وكان مشربا بالحمرة.

ــ فـــي اللـــيل يضربني، يقترب منى ولا يفعل شيئا ثم يضربني، أنا سبب عجزه، إنه يدعى ذلك..أنا لست سبب عجزه.

تجلـــس بجواري، أشم رائحتها، ضوء ضعيف ينفذ من باب الشقة إلـــى الصـــالة، باب الحجرة المواجهة للكنبة مغلق، حجرة أخرى جانبية بابها مفتوح يكشف عن طرف السرير.

ـ هـــل تعرفين؟ لقد ولدت في تلك الحجرة، انتقلت إلى الدور العلوي في العام الخامس من عمري.

ـ أمـــك قالـــت لـــي، أشعر بك معي في هذا المكان، هنا في الصالة، في حجـــرة الـــنوم التي ولدت فيها، أمك أرتني صورتك وأنت طفل، وحينما أقـــبلك هكذا فإنما أقبل طفلي الذي أحببته وانتظرته طويلا، ألا تحبني يا طفلـــي يا حبيبي؟ أنت لا تضربني، حنفي يضربني، أنت لا تشبهه، لست مـــثله، أنـــت تضحك في وجهي ورائحتك حلوة، هو لا يضحك مبلل دائما بالعرق، دعني أشمك، لا تبتعد عنى دعني المسك.

هـــيا المســـيني، أيـــن أنت الآن؟ في رأسي فقط أم في مكان آخر بعـــيد عـــن هنا؟ وحنفي هل ما زال يأتى إلى البيت متأخرا ويداوم على ضربك، هل صرت بالنسبة لك حلما؟

يلوح شبح إسماعيل في الظلمة، يقترب..

ـ ماذا وراءك يا إسماعيل..السجائر؟

ـ لا..

ـ تريد أن تتكلم.. تكون إنسانا أخرا حينما تصير جادا.

ـ كذبت عليك.

ـ لا يوجد هنا شئ اسمه الكذب..ماذا تخفى؟

ـ أنكرت لك بالأمس ذهابي إلى بيت زكريا..

ــ قلت لي أنك كنت نائما.
ــ في الحقيقة لقد ذهبت.
ــ ذهبت..
ــ رأيت أن أفاجئه بالزيارة واكشف أمره.
ــ رأيتها؟
ــ نعم..ولا..

أشــعل سيجارة جديدة وأخذ نفسا عميقا، ظل صامتا لفترة لم أشأ أن أقاطعه فيها، استعدت ذلك الحلم الذي لامست فيه الجسدين وتجردت من ملابسي وكدت أدفن تحت التراب.

قــال إســماعيل ــ أنت تعرف أني لا أصدق إلا ما تراه عيناي. في الليل اقتربــت مــن بيــت زكريا في حذر حتى لا يسمع خطواتي، وقفت أسفل نافذتــه فترة طويلة التقط الأصوات وكان في الداخل ضوء خافت، لم أر أحــدا ولكــني سمعت كلمة أو كلمتين فجازفت واقتربت برأسي من حافة النافذة وعلى الحائط المواجه تحرك ظل لا أعرف لمن لرجل أو لامرأة، ثــم ســمعت حركة احتكاك باب أو مقعد، في تلك اللحظة أسرعت ناحية الــباب، فجــأة تلاشى الضوء الخافت ولم اعد أرى شيئا، ناديت بصوت مــرتفع: هــل أنــت هــنا يا زكريا؟ لم يرد أحد، ظللت واقفا في مكاني بالقــرب مــن الباب ثم صرخت في الظلام: لقد سمعتك يا زكريا، لم يرد أحــد، وبعــد قلــيل تراجعت وعدت إلى الخارج حيث كان الظلام شديدا، خدعنــي، اختــبأ هو والتي معه، أو ربما هربا، قلت انهما لن يبعدا عن البيــت، يختبئان في الخرائب المجاورة، يختفيان في أي بيت من البيوت

المحيطة بهما، أخذت أدور حول البيت متصنتا وفجأة اصطدمت بجسم..
ــ كان جسما عاريا؟
ــ كيف عرفت؟
ــ عاريـــا وناعمـــا..ثم شعرت بقبضة أرغمتك على الركوع ثم بملابسك تنزع عنك، ويعتليك الجسد من أمام ومن خلف.. ثم يهال عليك التراب.
ــ أنت أيضا؟
ــ إنه شئ كالسحر ولكنه ليس بسحر.
ــ وزكريا؟
ــ لــن يقــول الحقــيقة لأنه لا يعرفها، اسأل نفسك يا إسماعيل أين تلك المرأة التي تدعى وجودها.؟
أشـــرت عليه بالصمت، لاح شبح زكريا مقبلا، أخرج إسماعيل من جيبه سيجارة مجعدة وأشعلها.
قال إسماعيل ــ اشتريتها بعشرة.
تأمل السيجارة المشتعلة بين إصبعيه..
لاحظ أن زكريا يرمقه، لوح له بالسيجارة.
قـــال إســـماعيل ــ كانت بخمسة، الآن النصف بخمسة والواحدة بعشرة، والعلبة بمائة.
قال زكريا ــ ولماذا تدفع؟
قال إسماعيل ــ السيجارة ممتعة بقدر ما تدفع فيها.
قال زكريا ــ كل شئ مرغوب وغالى الثمن إذا ندر وجوده.
قال إسماعيل ــ لم يعد لنا من متع إلا التدخين، أما أنت فلك متع أخرى.
لكنزت إسماعيل في ذراعه.

قلت ــ زكريا لا يدخن، لن يشعر بمتعة السيجارة لأنه لم يجربها.

واصــل إســماعيل هجومــه ــ إنــه يجــرب أشياء أخرى ألذ من متعة التدخين.

قلت ــ أية متعة يا إسماعيل؟

قال إسماعيل ــ متعة النساء..

وشار بيده إشارة قبيحة..أحسست برغبة زكريا في القيام.

قلت ــ إذا كنا سنبدأ هذه البداية في أول الليل فكيف سنقضى الوقت؟

قــال إسماعيل بحدة ــ هو يعرف كيف يقضى وقته في الليل، اسأله..أنت تعرف فلماذا لا تسأله؟

همهم زكريا ــ عن أي شئ؟

قال إسماعيل ــ عن المرأة التي تخفيها في بيتك..

قال زكريا ــ أنا لا أخفى أحدا عندي..

قلت ــ لا تخبرنا إذا كنت لا تريد..

قال إسماعيل ــ دعه يتكلم..إنه يخدعنا..

قلت ــ أسكت يا إسماعيل.

قال إسماعيل ــ أنت تقف في جانبه..

قلت ــ يا إسماعيل، هل تستطيع أن تكشف بوضوح عما حدث لك مساء زيارتك لزكريا؟

قــال إسماعيل ــ أنا لا أفهم ما حدث، ولا أعرف كيف حدث. ومن الذي فعل؟

قلت ــ ضع زكريا مكانك وتكلم.

قــال زكــريا :

هــذا الشيء حدث لكما مرة واحدة ولكنه يحدث لي كل يوم، في اللــيل كــل يــوم. أول مرة سمعت صوتها كالفحيح، اقشعر جسدي وملأ الخوف قلبي، عندما هممت بالفرار كان ثمة شئ يشل ساقي ولم أفق إلا فــي الصــباح، لــم أرهــا لكنى أعرف حدود جسدها من ملامستي له، انــتظرها فــي اللــيل كل يوم مهما كانت ظروفي، ودائما تأتى في نفس الميعاد الذي اعتادت أن تحضر فيه، أشم رائحتها عندما تقترب وتلتصق بــي، في الصباح لا أجد لها أثرا..أنفض عن جسدي التراب وكأني كنت مدفونــا، وفــى اللــيلة التالية وقبل أن تختفي الشمس خلف الجبل أكون هــناك في انتظارها، عندما تشتد الظلمة تأتى، أسمع صوتها همسا خافتا يســرى مــن أذنــي إلى جسدي، يتحول الهمس إلى فحيح يخدر جسدي ويعــريه، أغيــب عن وعيى وأنا أجد نفسي مرة على ظهري ومرة على بطني بينما حفنات التراب تهال على وجهي وجسدي..جسدي هذا..

وقف زكريا وسمعنا ضربات قبضتيه فوق صدره..

ناديته ــ زكريا..

قال ــ نحن الثلاثة جثث ننتظر الدفن.

قلت ــ ما زلنا أحياء.

قال ــ جثث كجثتك التي تحتفظ بها والتي نشم رائحتها الآن، ماذا يحدث لنا..وماذا ننتظر؟

كــان إسماعيل صامتا. انتهت سيجارته فألقى العقب على الأرض، ظــل متوهجا لفترة ثم انطفأ. إسماعيل لم ينبث بكلمة، أطرق برأسه إلى اسفل وتركني أتكلم مع زكريا.

قال زكريا موجها الكلام لي ــ أين الجثة؟

قلت ــ مدفونة في الشارع الجانبي.
قـــال ــ بقيـــت عـــندك زمـــنا طويلا، يبدو أنك لا تريد أن تفارقها، أفعل مـــثلها، لـــنفعل مثلها، نستلقي على الأرض، ننفخ بطوننا ونصدر رائحة كريهة، ربما ننسى أنفسنا، نتحلل وتلتهمنا الكلاب.
رفع إسماعيل رأسه قائلاــ إذا أردت اذهب ناحية الترعة.
قال زكريا ــ لم يعد يهمني..سأذهب.

أغمضـــت عينـــي، تلونـــت الظلمـــة أسفل جفني، تراءت دروب وخرائـــب لا يغمرها النور، وشبح يسير منحنيا تبينت فيه إسماعيل يحمل صـــرة الملابس، يزحف بها نحو الترعة، قلت ها هو إسماعيل يجازف مـــن جديـــد ويذهب إلى الترعة، هل يخدعنا ويقول لنا أن الخطر هناك قريـــبا جـــدا من الترعة، وماذا هنالك، ربما انتهى كل شئ وخوفنا هو الـــذي يمنعـــنا مـــن الاقـــتراب من الترعة. سمعت صوت رصاصة تردد صـــداها في الخرائب والأطلال انقلب بعدها إسماعيل متدحرجا نحو حافة المـــاء، تطايـــرت قطـــع الملابس الداخلية من الصرة على طول مجرى الـــترعة وطفـــا بعضـــها فـــوق الماء الضحل، صرخت في داخلي ضاع إسماعيل.

ضـــغطت علـــى جفني فلاحت لي في بداية الأمر جدران عارية، وأرض عاريـــة، وشـــوارع عارية، وأجساد عارية شاحبة، جسدي وأنا طفـــل صـــغير واقفا على بلاط الحمام والماء ينهمر فوقي، ثمة ذراعان إحداهمـــا تدعـــك رأسي بالصابون والأخرى تدلك صدري، جسد زوجة حنفـــي بعد أن حسرت عنه الثوب، تناثرت البقع الزرقاء فوق الذراعين

والفخذين والظهر، يبدو الجسد كاملا بعد أن تخلصت من الثوب..

ــ أكره جسدي لأن زوجي يشوهه، هل تحب جسدا مشوها؟

ــ إنه جميل وناعم، الكدمات لا تشوهه.

ــ أنت تراه كذلك؟

تتمدد أمامي وتغلق عينيها.

ــ لا تستاء مني يا طفلي، هل أعجبك؟

ــ تعجبينني..

ــ أنت لا تحب هذا الجسد يا طفلي.

ــ أحبه.

ــ لا يبدو عليك..

وجــدت نفســي جالســا بالقــرب من الجثة، أكاد ألمسها. حينما حفــرت في الأرض اصطدمت أصابعي بطبقة من الجرانيت تحت التراب. حاولــت انــتزاعها قطعــة قطعــة حتى أمهد حفرة بحجم الجثة. أدميت أظافــري دون جــدوى، الأرض صــلبة، ســتظل الجــثة فوقها لزمن لا أعــرفه.صامتة، صارت أكثر انتفاخا وانتشرت الرائحة الكريهة، تمزقت الســترة تحــت الإبــط وتســاقطت الأزرار واختفت ملامح الوجه بينما انتفخــت البطن وأصبحت على وشك الانفجار. ثمة ذباب أزرق اللون بدأ يظهــر بكــثرة،يحوم حولها يحط عليها. لا تتحرك، لا تأبه لشيء وكأنها تقول لي: تصرف فيّ كما تشاء :

هــل أنــت نائمــة أيــتها الجــثة؟ ألم يتعبك الرقاد طيلة اليومين الماضــيين؟ لــيل نهــار لــيل نهار، وهذا هو اليوم الثالث، هيا تحركي،

انفضـــي عــنك التراب وهذا القش القليل لم أجد غيره أدفنك به، الأرض هــنا صلبة، أحجار الجرانيت تغطيها ولا أستطيع أن أحفر أكثر من ذلك، ســتكون قاســية علــيك، الكــلاب عرفت مكانك، شمت رائحتك فأقامت مخابــئها بالقــرب مــنك، أسمعها في الليل تتجمع، تخرج من جحورها وســط الأنقاض والتجاويف وتزحف نحوك، سترتك السميكة التي تمزقت خــيوطها حمتك من الأنياب الحادة، أنت غذاء عظيم لكلاب اعتادت التهام اللحــم، أي لحــم، وربمـــا الفــئران أيضـــا والســحالى والأبراص حتى الحشــرات. يجــب أن يــرحل أحدنا، إما أن تغيبي في باطن الأرض، أو أبــرح أنـــا هــذا المكــان، لكنك ستظلين هنا أبدا، سيبقى أثرك، ستبقى رائحــتك..لمـــاذا تلتزمين الصمت؟ حدثيني عما تعانيه وترينه في رقدتك اللامبالــية هــذه، هل تشعرين بالوحدة؟هل تشعرين بالبرد في الليل؟ هل تحلميــن..مــثلي؟ هــل فـــي رأسك مدن وشوارع وناس؟ مخدوعة أنت الأخــرى..فأنــت كنت جثة قبل أن تكوني جثة، ربما كنت تحملينها في داخلــك دون أن تــدرى، خدعــتك الأحـــلام حــتى قضت عليك، الأحلام تخدعنـــي أنـــا أيضـــا، شوارع لا مكان فيها لقدم، وطفل صغير توهمني الأحـــلام أنـــه أنا، وهذا الشارع أراه في أحلامي في صورة أخرى، تحفه مـــن الجانبين بيوت كثيرة متلاصقة لا توجد فراغات بينها، وناس يخيل لـــي أنى أعرفهم والتقيت بهم من قبل، الذين أتذكرهم وأعرف أسماءهم هــل هــم موجــودون حقـــا؟ أين ذهب كل هذا إذا كان ذلك حقيقة؟ مدن كاذبـــة، وكذبـــة أسمها الحياة والموت، كل شئ وهم وكلانا لعبة الوهم، أنـــت كــل الحقــيقة ،كلها، قد تبدو بشعة، الحقيقة، ولكنها الحقيقة، قد تســتغرقين في الأحلام والأوهام سنينا طويلة فيخيل لك حياتك الحقيقية

ولكـــنك تفاجئيـــن بحقيقتك الحقيقية فتغيبين تحت التراب لتستقرى هناك إلـــى الـــبد، حـــتى هـــذا الأمل الأخير لم يتحقق. هناك عند البحر التقى بأشـــباح وأرواح الذيـــن ذهبوا والذين سيذهبون، أتطلع إلى الصمت في جـــوف المياه فأجدهم هناك، كـ[illegible] صامتين، مستقرين في القاع، الصمت يشـــدني دائمـــا إلـــى الـــبحر كما كان يجذبني إلى القبور القديمة وغابة الـــبوص المحيطة بها، وإلى طابور القبور الجديدة التي حفرناها بأيدينا. يـــا جماعة ضعوا أي علامة تدلنا على أسماء القتلى، سيأتي الوقت الذي يســـال فـــيه الناس عن موتاهم. زكريا وإسماعيل يقبلان من ناحية سور المستشـــفى أطـــراف المديـــنة، وآخرون يرتدون أردية بيضاء يحملون صـــررا تصـــدر رنيـــنا : لقـــد أحضـــرنا زجاجـــات فارغـــة مـــن المستشفى.زجاجات.. هل ستسقى الأموات؟

نكتب اسم الميت على ورقة
نضع الورقة داخل زجاجة
نضع الزجاجة في القبر
لكل ميت زجاجة فوق قبره.

داخـــل كـــل زجاجة ورقة بها اسمه الذي كان يعيش به، لكل منكم زجاجـــة فوق قبره. تتناثر الزجاجات ذات الأوراق المطوية بداخلها فوق طـــابور القبور، تلتمع في النهار وتعكس أشعة الشمس، مرة عندما تطلع مـــن ناحـــية الشرق عبر البحر، ومرة أخرى عندما تزحف ناحية الجبل وتختفـــي وراءه.مـــن لا تعرف اسمه أكتب داخل زجاجته مجهول، المهم أن يكـــون لكـــل واحـــد زجاجـــة حتى لو كان بلا اسم، فيما بعد ستبدل

الزجاجات بشواهد لائقة.

أعـرف إنـك تتصنتين وتسمعين كل كلمة أقولها، بل إنك تفتحين عينـيك فـي الظـلام وترقبيـن كـل شئ، ترقبين نفسك وأنت تتحللين وتتآكليـن، حـتى إذا تلاشـيت وبقيت عيناك وحدهما فستظلان ترقبان وتـريان، عيـنان تراقـبان وتـريان كل شئ، عينان تختلفان عن أعين أخـرى، عينان تعرفان ما سنصير إليه. ها هو الليل يقبل، ينحسر النور مـن الشـارع ، يتسـلق الجدران إلى نهاية الأدوار المتهدمة ثم تمتصه السـماء لـيذوب فـيها رويدا رويدا، في تلك اللحظة تبدئين حياتك، تبدأ عيـناك فـي العمل فلا يكون الليل ستارا قاتما، إنما مساحات شاسعة من الـنور الداخلـي يكشف لك عن الخبايا والأسرار الى لا تستطيعين التكلم عـنها. فـي هـذه اللـيلة قررت أن أراقبك، ساكون بجوارك لن أفارقك لحظـة، فقـط دعيني أبقى بجوارك وإذا شعرت بالإرهاق والنوم فسأرقد بجـوارك، بـل أنـا من الآن أرقد بجوارك، وها هو جسدي أمدده على الأرض ولـيلمس ظهري التراب ولتسترخي ذراعاي على الجانبين لكنى لن أستطيع أن أنفخ بطني، كما أنى في حاجة إلى ملابسي دون تمزيق.

لـم يعـد أثـر للضوء في السماء، النجوم تظهر نجمة نجمة، أنا مازلـت مرتـبطا بالعالم من حولي، هذا العالم القليل ما زلت مرتبطا به، أترقـب الشـمس عندما تطلع، أترقبها عندما تغرب، أترقب الليل حينما يقـبل وحيـن يذهـب، سألت نفسي من أنا؟ هل أنا أنا أم جسدي؟ وهل جسـدي شـئ آخر غيري؟ ما دمت آمره ويطيعني فهو إذن شئ آخر، وبذلـك يكـون جسدي هو جسدي وأنا هو أنا. أما أنتِ فجسد فقط، لقد

فارقــتك الأنـــا، تمامـــا سأكون مثلك حينما تغادرنى الأنا، سأكون جسدا فقــط. الآن أســتطيع أن آمـــر فتطيع أطرافي كلامي. انظري إن أطرافي الأربعــة طوع أمري، ها أنا أرفع يدي اليمنى، تتصلب العضلات ثم تحمل الــذراع ولحمـــه إلـــى أعلـــى، هكذا رويدا رويدا حتى يكون ذراعي في وضـــع رأســـي، أو أطوح كلتا ذراعي هكذا، أو أفرد أصابعي وأحركهما هكـــذا، في الوقت نفسه أحرك ساقي، هل تستطيعين أن تحركي أطرافك؟ هـــيا حاولـــي وابدئي بذراعيك، لا بد أنهما ثقيلان وفوق طاقتك حملهما إلـــى أعلى، إذن حركي ساقيك، لا ترفعينهما إنما فقط ابعدي كل واحدة عـــن الأخـــرى بأكثر مما هما عليه، ولا هذه أيضا، هل يضايقك العجز؟ حاولـــي ثانية، ها أنت تحاولين، افعلي مثلى، إني الآن أرفع ذراعي إلى أعلـــى، صـــارت الآن فـــي وضـــع أفقي، ليس تماما، ولكنهما في وضع أفقـــي، قليل من القوة يا جثة من أجلى، ها هي ترتفع، رائع رائع، أبقيها هكذا، تبدو ذراعك وكأنك تلوحين لشخص ما أم هي تحية من أجلى، لقد تعـــودتِ عليّ، لن اقبل تحيتك إلا من ذراعك الأخرى ارفعينها كما فعلت مـــنذ قلـــيل، إنـــك لم تبذلِ جهدا كبيرا على كل حال عندما رفعت ذراعك تلـــك، الآن بـــبطء، هـــيا توقفـــي، قلـــت لك أن تكون ذراعك في وضع الأخـــرى، لقـــد جعلـــتها مـــرتفعة، تكاد تكون في وضع رأسي، لا بأس، تريديـــن أن تفعلـــي مثلى، إنك تقلدينني ، أم تريدين أن تتفوقي عليِ، في مقدرتـــي أن أحـــرك جســـدي، أن أرقد على جانبي، وأنام على بطني ، وأقـــف أيضا، إن هذا كثير عليك لو طلبت منك فعله. هل حقا تستطيعين؟ إذن افعلـــي، دفعـــة بســـيطة من الكتف والجذع كما أفعل ستجدين نفسك علـــى جانـــبك، مـــرة أخرى ولتكن الدفعة أقوى، رائع، أنت الآن ترقدين

علـــى جانبك، كلانا يرقد على جانبه، لا بد أنك سئمت رقدتك الأولى، إن تقليـــب الجســـد أثـــناء النوم شئ مريح ولذيذ، أرقبيننى ها أنا بحركة لا تكلـــف جهـــدا أنام على بطني، حركة صغيرة، إن بطنك تعوقك، حاولي، بينـــي وبيـــنك وضعك هكذا مضحك ومحزن في الوقت نفسه، تبدين كمن يحـــاول السباحة في التراب، عودي إلى رقدتك الأولى، في الليلة التالية أرجـــو أن تكوني اكثر مرونة، تحريك الذراعين والساقين في وقت واحد، الـــنوم علـــى جانـــب، النوم على البطن ثم العودة كما كنت، قد تحتاجين وقـــتا أكبر حتى أدربك على القيام والقعود والسير من جديد على ساقيك الضـــخمتين، يجـــب أن تتخلصـــي مـــن رائحتك، لو نجحت فى تدريبك سأحصـــل لك على كلابس جديدة، سأجعلك تساعديني وتقضين لي بعض الحاجـــات مـــن هـــنا ومن هناك، أما إسماعيل وزكريا فسيحسداننى من أجلـــك، قد يسعيا هما أيضا للحصول على جثتين أخرتين، لكن إسماعيل ملقـــى علـــى حافـــة الـــترعة، فلـــيأخذ زكريا جثة إسماعيل ، أو ليأخذ إســـماعيل جثة زكريا، ربما استطاعا أن يكون مفيدين لبعضهما البعض، تـــأكدي أنهمـــا سيفشلان في تدريب أنفسهما ولن يكون مثلك أبدا، هل تســـمعينني؟ هل تسمعين هذه الأصوات؟ لقد أتوا أخيرا يبحثون عنك، لن يعـــثر علـــيك أحد، أنت غير موجودة، مدفونة تحت التراب، لا أحد يعلم أيـــن أنـــت، أنت جثتى، أنت لي، سأعتني بك وتصبحين مثلى، لن يعرف أحـــد أنك كنت جثة ذات يوم، هل تسمعيننى؟ إنك فعلا تسمعينني، حركي رأسك، قولي لي أنك تسمعينني، فإن..

ـــ كفى لقد أرهقتنى..

نوفمبر عام ١٩٧٨

# عبر الليل نحو النهار

المدينة يتم تجميعها معا، كما تخضع لقاعدة، لما يشبه السلام
عن طريق الوهم المضاعف! ولكن حياة الإنسان، فكره،
هو بالرغم من رعبه، لا يستطيع أن يتوقف
عن التجوال قرنا بعد قرن، ويظل
يفتش، محطما ومقتلعا، آملا أن يرى يوما
عزلة الحقيقة..

( كـــان صـــمت مخادع ذلك الذي أطبق فوقك، فوق المدينة كلها. الأرض تهــتز، تــرتعش تحت قدميك، أصوات الانفجارات تخترق أذنيك. وأنــت لا تدرى ماذا تفعل. أتركض كما يفعل الآخرون. أم تنكمش بجوار الجــدران وتدخــل مـــن أحد الأبواب التي تمر بها. كان صمت مخادع، والانفجـــار المفاجيء يضغط على جسدك، يكسر ضلوعك، يهرس لحمك وعظـــامك. يتصـــاعد الغـــبار فوق البيوت فتراه، وتشم رائحته الثقيلة، رائحـــة الغـــبار والبارود وتضغط على أنفاسك، فتريد أن تعطس أو تضع يديـــك فـــوق وجهك حتى تمنعها من الدخول إلى رئتيك، الرائحة القذرة. لكـــنك ســـتختنق، ومـــا عليك إلا أن تخطو إلى الوراء والدخول في ذلك المخبأ )

تصـــلب عنقه متطلعا نحو الأفق البعيد. نكس رأسه وشم الأرض، رفعـــه، انتصـــبت أذنـــاه، مـــد عنقه إلى الأمام، انطلق منه عواء خافت مبحوح.

انطلقـــت القذيفـــة الأولى. رقد على الأرض والتصق بها، انطلقت القذيفـــة الثانـــية. قـــام وأخذ يعدو على طول الشاطيء المهجور، فوق الـــرمال التـــي لم تدركها الأمواج وجففتها الشمس. يعدو، يبدأ من حيث ينتهي، يدور يتشمم الأرض، يتصنت.

انطلقـــت القذيفة الثالثة. يعدو نحو سور الشاطيء، يقفز من فوقه متجها نحو ميدان المدينة.

اخترقـت القذيفـة أسـفل جدار المبنى الكبير في طرف الميدان، نفـذت إلـى الحجرة الداخلية وانفجرت فيها. ألقت بنوافذ الدور الأرضي فـي الشارع، حفرت جدران الحجرة وسقط بعضها، كاشفة عن الحجرات الداخلـية الأخرى ودورات المياه، وقد تقطعت أسلاك الكهرباء ومواسير المـياه. أحدثـت القذيفـة فـي الأرض حفرة امتلأت بالماء. عبر فتحة الجـدار المستديرة الواسعة ومن خلال النوافذ التي فقدت أطرها، تمددت فـروع كثيفة من النباتات المتسلقة بأوراقها الصغيرة الداكنة، هابطة من أعلـى الجـدار، مـن فجوات النوافذ والفوهات والفتحات التي صنعتها القذائـف، متجهة نحو الشارع الملاصق للميدان زاحفة فوقه، وما زالت أطـراف الفـروع الخضـراء محملة بالأوراق الصغيرة الوليدة وبراعم تتفـتح، مـن حـول الجدار بعيدا قليلا عن أسفل الرصيف المنزوع من أسـفلت الشـارع، انبثق من الأرض الصلبة نوع من الحشائش الطويلة عريضـة الأوراق، انبثقـت فـي حـزم، مضمومة من أسفلها، متسعة متـباعدة مـن أعلى، تغطى مساحات كبيرة من حولها، تتقدم ببطء نحو سـاحة الميدان. أوراق طويلة عريضة خشنة مشرشرة ذات ابر صغيرة مدبـبة، عند التقاء الأوراق بالساق المختفي تظهر الأشواك طويلة مدببة الأطـراف صـفراء اللـون ومـن أسفلها على الأرض، ارتمت الأوراق القديمـة بعد أن جفت ولم تعد تستمد غذاءها من الجذع القصير المنبثق من الأرض.

بيـن الحـزم تنتشر قطع الحجارة والأخشاب والحديد. أجزاء من الأدوات المنزلـية، أكـواب زجاجية محطمة، أوعية من الألمنيوم، بقايا

مقــاعد، مــرايا متكســرة وأوراق قديمة يعبث بها الهواء، أحذية بالية منتفخة.

( ركضــت نحــو المخبأ، قفزت فوق الحفر والأنقاض المتساقطة. ارتطمــت بكتفــي قطع كبيرة من الحجارة، لم أشعر بثقلها وهى تصيبني بالكدمــات تحــت ملابســي. اندفعــت نحو الباب الصغير المدفوس في الــرمال، أحنيت رأسي وارتميت على الأرض في داخل المخبأ. أغمضت عينــي وتنفست بعمق. هدير المدافع يهز جدران المخبأ السميكة القوية، يهز أكوام التراب فوق سقفه، يهز فوهات التهوية. هواء محمل بالأتربة ورائحــة الــبارود يهــب مــن المدخل فيملأ جو المخبأ برائحة مكتومة، مقبضة.

بعــد قليل فتحت عيني رافعا رأسي. كان الظلام شديدا وكانت تمر مــن أمام عيني مخلوقات وأشكال حمراء وزرقاء. لم تتعود عيناى ظلمة المخبأ. لم أشعر بحركة ما..صحت : هل أحد هنا؟)

عــند الباب الحديدي المغلق في المدخل الممتد حتى سلالم البيت، تــراءت أكوام الحطام تملأ المدخل، تتكوم الأحجار والأشياء بعضها فوق بعــض، تخفــى درجات السلم. ظهرت بعض درجات السلالم العلوية بعد أن ســقطت وارتمــت في الدور الأرضي عند المدخل قاطعة الاتصال ما بيــن الأدوار السفلية والعلوية. بقيت حجرات بأكملها سليمة في الأدوار العلــيا بكــل محــتوياتها، مغلقــة علــى نفسها برائحتها الثقيلة القديمة المحبوســة، بسقوفها وأرضياتها المائلة وقد اتسعت الفجوات بين زوايا

الجـدران القائمـة، واتسـعت الـثغرات بين العروق والألواح الخشبية. نصـبت العناكـب خـيوطها فـي الأركان والزوايا، في فجوات الجدران والحفـر، زحفـت خـيوطها فوق كل المحتويات الموجودة داخل المبنى، تشـبعت بالـتراب والغـبار الـذي تعلق بها، برائحة البارود والدخان، فتحولـت الخـيوط إلـى نسيج رمادي من الخيوط العنكبوتية والحشرات الصغيرة الميتة.

( مـرت فـترة صـمت، لـم يرد أحد. كنت ما زلت مرتميا على الأرض. سـمعت شخصا يسعل، صحت مرة أخرى : هل يوجد أحد هنا ؟ قـال : رأيـتك وأنـت تدخـل مـندفعا. قمـت معتدلا وقلت : اللمبة لا تعمـل..مكسـورة؟ قـال : سرقوها. لمس رأسي سقف المخبأ، توجهت محـنى الرأس نحو الركن إلى يقع فيه، وحينما اقتربت منه رأينا بعضنا بعضا، صاح في : أنت..! )

علـى امـتداد الشارع المتفرع من الميدان تتراءى فروع النباتات المتسـلقة زاحفـة من جانب إلى آخر، وكلما زحفت إلى مكان تبدأ ثانية فـي الـزحف نحـو مكـان جديد، متسلقة الأحجار والجدران، مواصلة الـتقدم نحـو الشوارع والحواري الخلفية الصامتة الخاوية. أزيحت قطع الحجـارة وبقايا الجدران جانبا حتى لا يعوق مرور عربات النقل. خلف الشـارع، شارع آخر أقل اتساعا ومن خلفه شارع ضيق ثم حارة ضيقة قصـيرة مـا زالت القطع الجرانيتية الصغيرة إلى ترصفها مغروسة في الأرض، تتلاشـى عـند المدخـل المـؤدى إلى الحي الكبير القابع خلف الشوارع المتفرعة من الميدان، ببيوته المتلاصقة وروائحه الخاصة التي

تمـــلأ الحـــواري والممرات الضيقة والأزقة ذات المدخل الواحد والبيوت القديمـــة قائمة تعوق التقدم خلال بعض الحواري، بيوت أصيبت فانهارت علـــى نفسها متكومة في الحواري والممرات الضيقة قاطعة الطريق إلى الداخـــل حاجـــبة الـــرؤية لما بعدها. أكوام لم يعبث بها أحد، تركت هكذا مكومـــة وســـط الحـــواري الخلفـــية الضـــيقة فتحولت إلى ركام وتغطت الحجـــارة وقطـــع الطوب والتراب بلون رمادي يتخلله في بعض الأماكن اللـــون الأخضـــر، لـــون النـــباتات والحشائش التي نشبت جذورها بين الأحجـــار الصـــلبة، مستمدة غذاءها من تحت الأرض من تحت الأنقاض مـــن الأخشـــاب المتعفـــنة والخرق القديمة وبقايا الأشياء التي تركوها عندما غادروا بيوتهم ومدينتهم.

( انطلقـــت الصـــفارة مـــن جوف الصمت. يتردد صوتها بقوة في أرجـــاء المديـــنة الصـــامتة الخاوية، يتردد الصدى في أعماق الشوارع الخلفـــية والحـــواري الضـــيقة. يـــتحرك الناس كما تتحرك الأشباح، في صـــمت وبسرعة، وبعد برهة قصيرة يكون كل واحد منهم متخذا أهبته، واقفـــا أمـــام مخبأه، مستعدا أن يدلف إلى جوفه عند سماعه لأول طلقة، مســـرعا بجوار الجدران يريد أن يصل إلى هدفه قبل أن يحدث الاشتباك، مـــتطلعا إلـــى الســـماء، نحو الشرق يرهف سمعه وعند سماعه للطلقة الأولـــى يضـــع يـــده فوق جيوبه ويركض. تدوي الصفارة فتشد جهازك العصـــبي يـــتوتر، تشـــتبك المدافع أو لا تشتبك لا ترخ أعصابك إلا بعد صفارة الأمان )

فـــي الحجرة ،مكتب ومقعدان وسرير وساعة حائط ونافذة مغلقة

عــند مدخــل دورة المــياه الذي لا يؤدى إلى شيء، حوض معلق فوقه صنبور وسقف مائل من إحدى زواياه الأربع. فوق المكتب كوب زجاجي مملــوء حتى منتصفه بسائل جاف فقد لونه، وعدد من الكتب والمجلات. علــى الجدار خلف المكتب، لوحة من الكرتون ملتوية على نفسها، بدت كأســطوانة معلقــة، ونتــيجة حــائط توقفت عند اليوم (   ) من شهر (   ) عــام (   ) . الــنافذة مغلقــة مقوســة للداخل ،اتخذت شكل الــنافذة التي توشك أن تندفع وتسقط داخل الحجرة. بعض ألواح إطارها الخشــبي مــنزوعة منتشــرة على الأرض تاركة مكانها للتراب والركام الــذي يضــغط خلفهــا. شماعة معلقة على الحائط بجوار السرير عليها بعــض الملابــس المــثقوبة الممــزقة وتحــتها على الأرض زوج من الأحذيــة. أحــد المقعديــن مقلــوب على الأرض مكسور الأرجل قاعدته مــنزوعة. تدلت أسلاك الكهرباء على الجدران وبقى سلك الإضاءة وسط الحجــرة بلا لمبة. امتدت خيوط العنكبوت من زوايا السقف متدلية حتى الأرض صــاعدة هابطــة شــاغلة فــراغ الحجــرة متشابكة مع أسلاك الكهــرباء والمقعديــن، والمكتــب والســرير، ســميكة مشبعة بالتراب والــرائحة الثقــيلة. جدران الحجرة مليئة بالحفر منتشرة في كل مكان، أدراج وأســطح مــثقوبة غطــتها خيوط العنكبوت. باب الحجرة مفتوح، مطــروحا فــوق أرضية الحجرة، تاركا مكانه لسد من التراب والحجارة، حاجزا منفذ الباب.

كــنا قــد أزلنا هذا السد وكنت أول من دخل الحجرة، واقفا فوق الــباب الخشــبي المطروح فوق أرضية الحجرة. الباب الذي نقرت عليه

كثـــيرا فيما مضى. سمعت أحدهم يحذرني من الخارج بألا أدخل أكثر من ذلـــك، فالبيـــت مـــنهار متساقط، ولكني كنت أبحث عنه وكنت أحس منذ قالوا لي بأنه مفقود، بأني سأجده هنا في حجرته.

مـــن خلال ظلمة الحجرة بدت الأشياء رمادية اللون كالحة، ظلمة ليســـت لها علاقة بليل أو نهار، ظلمة ليست تابعة لضوء الشمس، بقيت زمـــنا محصـــورة داخل فراغ الحجرة لا تتسرب أو تتجدد، بقيت مختفية أســـفل ركـــام ثلاثة طوابق، أخفاها الركام وحولها من حجرة عادية إلى حجـــرة ســـرية، مجهولة غامضة، محتفظة بأشيائها الخاصة القليلة كما هـــي، وكانت الظلمة تذوب رويدا رويدا أمام الضوء المتسرب من الفتحة التي دخلت منها.

( حيـــنما دخلت من بوابة الفندق، صعدت السلالم العريضة القليلة التـــي تـــؤدى إلـــى الصالة ومكتب الاستقبال. رأيت ظهرها، تحمل بعض المفـــارش البيضـــاء مـــتجهة بهـــا نحو السلالم الداخلية إلى تؤدى إلى الطوابق العليا.

سألته : هل عندكم نساء ؟

قال: إنها تعمل في الفندق ولا توجد غيرها في المدينة.

قـــبل أن تصـــعد الســـلالم الداخلـــية التفتت خلفها، لاحظت فمها الواسع وصدرها الكبير..

قال لي : إنها.. )

كنـــت أشـــم رائحة الهواء والعفن الذي يتسرب أيضا إلى الخارج

تاركا الفراغ لهواء جديد ينفذ من الباب مع غبار الحفر والتنقيب. ركب العقــرب الكبــير فوق العقرب الصغير واستقر البندول بسلسلته الطويلة، أســفل ميــناء الســاعة، صـ ـا كابيا، وبقية الأرقام بهتت، تلاشت تاركة مكانهــا مغبشــا وخــيوط ـادية هشة تعلقت بالبندول وامتدت ملتصقة بجــوار الصــندوق الخشـبي للساعة. من خلف زجاجها المعتم استلقت حشرات كثيرة جامدة.

هــذه الساعة كان يعتز بها وكان يقول لي أنه يسمع دقاتها بالليل إذا مــا عــاد إلــى حجــرته. الصــنبور معلق على الحائط بلا مواسير، والحــوض مــن أسفله تجمد في قاعه المسدود بالأتربة ماء قديم، وعلى الحــائط أســفل الحــوض نشــع مملح امتد حتى الأرض تناثرت حوله الصراصــير والأبــراص الميــتة. السرير قائم في ركن الحجرة المواجه للمكتــب، هبطت حاشيته والتصقت بالألواح الخشبية..التمزقات في كسوة الوســادة والحاشــية خرجت منها ندف من القطن بلونه الرمادي القديم، وفوق السرير عثرت على جثته، هيكله.

( اســتولى عليــنا الضــيق، كنا في حاجة إلى مزيد من الهواء. خرجــنا وســرنا في الظلام على هدى أضواء العربات، الأضواء الزرقاء المعــتمة، وأنــوار المــتاجر الخافــتة الداخلــية القليلة المفتوحة على الجانبيــن. كان الجو حارا، وكانت بعض عربات الجيش تعبر الشوارع المظلمة بسرعة ،تطلق كشافاتها الزرقاء وكشافاتها الأخرى الصغيرة ثم تطفــئها وتواصــل المسير في الشوارع المظلمة. وكان الجنود ما زالوا يــتدفقون على المدينة، تبدو أشباحهم مغبرة بلا ملامح في الظلام، تشم

رائحـــة عــرقهم، عرق قديم محروق، ورمال ملتصقة بالعرق. صامتون لا يـــتكلمون، إنمـــا يـــنظرون ويواصـــلون المسير مثل عرباتهم ،تذوب جموعهـــم فـــي ساحات المدينة، يوغلون في ظلام الليل وأعمدة الإضاءة في الشوارع مطفأة والسماء مظلمة إلا من نجومها. سمعت صوت مدفع ســريع الطلقـــات ثم انطلقت بعد كل المدافع. ركضت في الظلام، لم تكن هناك مخابيء، بقيت في أحد الأدوار السفلية..)

أصـــبح جـــثة قديمـــة، حتى صدره فوق حافة السرير، تدلت بقية جسده على الأرض، لامست ركبتاه وساقاه أرضية الحجرة. جثة مهترئة تـــآكل لحمهـــا فالتصقت بالبيجامة، والدم المتخثر على الجسد والفراش وفـــوق الأرض..الســـائل الأصفر المنثال من الجثة بعد تحللها تشبعت به ســـترة البيجامة فكون طبقة جافة صلبة وفقد الوجه ليونته وملامحه. لم أتعـــرف علـــى وجهـــه، لكـــنها كانت حجرته وأشياءه الخاصة وساعته وأوراقـــه وكتـــبه التي أعرفها جيدا. لم يتبق من الرأس سوى الجمجمة ومـــنافذ العينين والأنف والفم. لاحت عظام الأصابع مغروسة في حاشية الســـرير ،ومـــن الظهـــر بدت فتحة، ثقب واسع ممتد للداخل، بدت حافة الثقـــب الداخلية السوداء قاتمة عندما فتحت طريقها الشظية المنطلقة من الصدر.

( امـــتلأت الســـاحة بهـــم. بدأوا يتجمعون في الميدان الرئيسي، يدلفـــون مـــن الشوارع الجانبية إلى الميدان بأقدامهم المتعبة وأحذيتهم الثقـــيلة، يتوقفون عند الميدان يرون بعضهم بعضا، يلقون بما يحملونه بجوارهم على الأرض : بنادق ومسدسات ذخائر أحزمة وشرائط سلاسل

معدنـــية بهـــا قطع رقيقة من الحديد عليها أرقام يحافظون عليها، يقفون بـــرهة يتلفتون حولهم ينظرون إليّ، إلينا، إلى المدينة ثم يرقدون بجوار أمتعـــتهم ومعداتهم، يتنفسون بعمق، ينفذ الهواء بقوة إلى فتحات أنوفهم المغـــبرة، إلى أفواههم المغـ ـرة ذات الشفاه المدلاة. تتدفق من الشوارع الجانبـــية جمـــوع جديـــ ، رجال مرهقون أتعبهم المسير وسط الرمال، الـــركض فـــوق الرمال الساخنة، تعلقن بهم الرمال ونفذت إلى أجسادهم، امتزجـــت بعـــرقهم ومحـــت ملامح وجوههم، أبقت لهم العيون والأفواه وفتحتي الأنف. من هنا مروا ومن هنا عادوا )

هبطـــت خـــيوط العنكبوت على جثته من السقف واشتبكت بها ثم صـــعدت ثانـــية إلـــى السقف، وإلى الجدار الملاصق للسرير. بدت الجثة وكأنهـــا معلقة في تلك الخيوط، ترتفع في أي لحظة مهتزة يمنة ويسرة. بجـــوار عظمـــة الساق كتاب مزقته شظية، نفذت من خلال صفحاته كلها تاركة إياه مثقوبا منتفخا من الرطوبة والسائل الأصفر.

تراجعـــت إلـــى الخلف، عدت من الفتحة التي دخلت منها، ناديت علـــيهم، كـــانوا يبحثون معي في أماكن أخرى، وقف بعضهم أمام البيت فـــي انـــتظاري، أشرت إليهم بأنه هنا، تقدم اثنان منهم ومعهما بطانية، قلـــت لهـــم بـــأن يحضرا بطانيتين، فالجثة متعفنة مهترئة. حملنا الجثة وانتزعـــناها من فوق حاشية السرير التي التصقت بها، لففناها جيدا في البطانيتيـــن، خرجـــنا بهـــا من المنفذ الذي فتحناه ووضعناها على نقالة وســـرنا بها في الشوارع بلا سيارة. اتجهنا نحو قسم الشرطة وأعطيناه البيانات اللازمة ثم أكملنا طريقنا نحو..

( تقــدم منى وأمسكنى من ذراعي. في ظلمة المخبأ أخذ يهزني قــائلا مــن بيــن أســنانه : يجب أن تغادر المدينة..لماذا تبقى هنا ؟ أنا أعــرف..أنا.. ألقاني على الأرض، كنت الهث. غادر المخبأ والمدافع لم تسكت بعد.)

توقفــنا أمـــام صـــف طويـــل من الحفر الحديثة الفارغة، وضعنا الــنقالة على الأرض وحددنا مع حارس المقابر الحفرة التي سندفن فيها الجـــثة. أحاطت بنا المدافن القديمة، متراصة بالقرب من الحفر الجديدة، مـــن خلفهـــا، مـــن أمامهـــا، تســـتدير من حولنا قاتمة متهدمة صامتة، تســـاقطت شواهدها بالقرب منها. كل شيء مبعثر الأكفان المهترئة في لـــون الـــتراب العظـــام والجماجم..كانوا يقصفون المقابر أيضا..وكأنهم يثأرون من الموتى.

انبعثــت النـــباتات المتسلقة من فوق القبور، تمددت على جوانبها وغطــتها، تســلقتها وزحفــت فوق الحواجز الخشبية وتعلقت بالجدران القديمـــة المتهاوية بينما كانت الحشائش العريضة الأوراق في كل مكان مخـــتلطة بنـــباتات شوكية أخرى أخفت الممرات بين القبور. أما المدافن الكبـــيرة ذات الجـــدران المـــرتفعة فقـــد خرجـــت من نوافذها وفتحاتها مجموعات هائلة من البوص الأخضر.

ســـرعان ما وضعوا الجثة في الحفرة وأهال عليها حارس القبور الـــتراب بمساعدة صبى طويل القامة ثم أخذ يسوى الأرض ويضغط على

الـــتراب بمجرفـــته وبدأ يصنع للقبر قبة مرتفعة من التراب. اقترب منى رجـــل يـــرتدى جلـــبابا كـــان لونه أبيض، سألني إذا ما كنت أريد شيئا خصوصيا بالنسبة للقبر. نظرت إلى القبور من حولي.

سألته عن هذه الأشياء الخصوصية

قال لي وهو يهز رأسه : أحجار نحيط بها القبر، بعض الزهور والفروع الخضراء، سعف نخيل نزين بها القبر، أشياء كهذه يعنى.

أومـــأت إلـــيه بالموافقة. بعد قليل رأيت نفس الرجل يعود بصحبة رجلين آخريـــن يحملـــون بعـــض قوالب الطوب الأحمر ورشاشا للماء وحزمة كبـــيرة مـــن الـــزهور وســـعف النخـــيل وبعـــض النباتات ذات السيقان الخضـــراء. رصوا قوالب الطوب حول القبر وأخذ واحد منهم يرش الماء فوقـــه بيـــنما بعـــثر آخر الزهور والفروع الخضراء فوق القبر . كانوا يفعلـــون ذلـــك بسرعة وبطريقة آلية لم تستغرق دقائق. وقفوا بجواري ومـــد لي الرجل الذي اتفقت معه يده، قبل أن أخرج يدي من جيبي جاء شـــخص ما من خلفي وقعد على الأرض بعد أن خلع نعليه ثم أخذ يتمتم بآياتـــه القرآنـــية آكلا الحروف، يلفظها بسرعة وكان ينظر نحوى وهو يقرأ .

قلت للرجل : من أين تأتون ؟

قال: ماذا ؟

قلت : لا شيء.

عـــدت أنظـــر إلى القبور والحفر الجديدة والقبر الجديد وصوت الـــرجل المقـــرىء يـــتردد فـــي سمعي، يتردد بين القبور كصدى. تركنا الآخرون وبقيت في انتظار أن ينتهي الرجل من قراءته.

( في كافتيريا الفندق أجلس وحيدا، المناضد شاغرة، لا يوجد من يجلس عليها، أبحث عنها، لا أحد. أبقى بمفردي. تعودت هي رؤيتي. تحييني بهزة من رأسها كلما رأتني وحيدا. تحدثت معها مرة )

كنا نراهم من خلال الأبواب المفتوحة بملابسهم الملونة وسلالهم المليئة بالفطائر والبرتقال، يجلسون خارج الأبواب، يسيرون بالقرب من مقابرهم. أخذني بعيدا وقال لي أنه سيعزمني عند عمه. اجتزنا مقابر كثيرة واقتربنا من مبنى صغير له باب خشبي، دفعه بيده فانفتح الباب مصدرا صريرا. دخلت معه في حوش مقبرة قديمة، رأيت أمامي على الأرض أكواما كبيرة من البرتقال والبلح والموز ولفائف بها فطائر وكعك وأكياس مغلقة.

قال لي أن آخذ ما أشاء . قال لي أن عمه يجمع الرحمة في هذا المكان ثم ينقلها على عربة كارو في آخر النهار إلى بيت الأسرة.

عدت مرة أخرى إلى حجرته. نفذت من فتحة الباب. كانت الرائحة قد خفت حدتها. ضوء الشمس نفذ من فتحة الباب، يضيء الحجرة ويذوب فيه اللون الرمادي. أخذت أنقب في أشيائه: الكتب فوق المكتب، وعلى الأرض ملابس بدت قديمة بلا ألوان، لها رائحة ثقيلة.

عندما أخذت أفتح أدراج المكتب لم تفتح، صممت على فتحها. وجدت في الدرج الأول علبة كبريت وقلم كوبيا وبعض الأوراق وإيصالات إيجار قديمة. في الدرج الثاني وجدت دفترا كبيرا، قلما جافا

ومشـــعلا يعمل بالبطارية، ومنديلا كالح اللون. أما الدرج الثالث فلم يفتح معي. لم ما يستحق نقله من هذا المكان.

عــدت أنقــب فـــي الأشياء الموجودة، عثرت بجوار السرير على مـــنديل أحمر كبير من الحرير يكاد يفقد لونه، منديل مما تستعمله النساء علـــى رؤوســـهن. عدت إلى أدراج المكتب وأخذت أفرز الأوراق والكتب والدفاتـــر. توقفــت عند الدفتر الموجود بالدرج الثاني وتصفحته. كانت صـــفحاته مكتوبة بخط يده الذي أعرفه جيدا. الصفحات الأولى وحتى ما بعــد المنتصــف مكتوبة بقلم جاف، والصفحات الأخيرة بقلم كوبيا. كانت هــناك تواريـــخ قديمة عن السنين التي قضاها في المدينة، وكانت هناك صفحات بيضاء، أو مكتوبة حتى منتصفها.

( رأتنـــي أقــف لهـــا، عـــادت أدراجها وسلمت عليّ، ثم جلست معي..)

أخــذت الدفــتر ووضعت المنديل الأحمر في جيبي بعد أن نفضته مـــن الـــتراب العالق به. خلعت ساعة الحائط بعد أن قررت أخذها معي. خرجـــت من البيت وخيوط العنكبوت تلتصق بي ممتدة من جوف الحجرة حـــتى الشـــارع. حاولت التخلص منها بتقطيعها من فوق ملابسي، ومن فوق صندوق الساعة الخشبي.

( كان ذلك، في يوم..)

أخرجـــت الدفتر وأخذت أقلب صفحاته. ما زال يحمل تلك الرائحة القديمـــة، رائحة الغبار والهواء المحبوس والدم القديم والجثة المتحللة.

كانـــت في الدفتر يوميات ذات تواريخ قديمة ويوميات حديثة. على ضوء الحجـــرة الضـــعيف بـــدأت بقـــراءة الدفتر، وكنت أظل أحيانا منتظرا في الظلام حينما ينقطع الضوء حتى يعود.

( المـــوت. الانفجارات المستمرة، الترقب المستمر بملابسك كاملة فـــي الحجرة. إذا حدث مرة أخرى لا تذهب إلى المخبأ الذي في الميدان. البيـــت المجـــاور أفضل. هناك أشعر بالاختناق. توقعك بالزيارة، هل هو في محله ؟ أرهف سمعك فقد يدق الباب دون أن تسمع. ستسمع صوت القدميـــن علـــى الســـلم الخشـــبي، كان يجب عليك أن تزيل هذه الطبقة الســـميكة من الغبار فوق مكتبك والمقعد الآخر. سأخرج إليه بعد الظهر. لـــن يأتي أحد بعد الظهر. في الليل سأذهب إلى هناك. بالأمس ذهبت. إذا خرجت فلا تنس أن تحضر معك خبزا وأشياء أخرى، معلبات، رسالة، لا رســـالتين، لـــيأخذهما معـــه. سيمر عليك غدا. رسالتان، لا تشتر خبزا، تناول طعامك بالخارج، غدا سأفعل. )

بعد منتصف الليل أيقظتني الصفارة من النوم بصوتها المتقطع الـــذي يـــدوى فـــي أرجاء المدينة. قبل أن أهبط من سريري سمعت أول طلقة مدفع. ارتديت سروالي وأخذت قميصي وحذائي في يدي وأنا أهبط الســـلم بســـرعة، بقيت في الدور الأرضي. لم أذهب إلى المخبأ، أخرجت رأســـي من باب البيت، كان الشارع مظلما ساكنا ، تطلعت ناحية السماء، نســـمة باردة تهب من الشوارع وتدخل البيوت، تدخل الأحواش والمداخل المهجـــورة ثـــم تـــرتد أو تصـــعد من خلال النوافذ المخلوعة والثغرات والمســـاقط. تـــتوهج السماء ببريق المدافع ثم تعود أكثر ظلمة عن ذي

قـــبل. يوجه الميكروفون المعلق في الميدان نداء بالتوجه إلى المخابىء، في هذا الوقت من الليل.

بقيت في مكاني لكنى عندما سمعت أول انفجار في المدينة قررت أن أذهـــب إلى بيت آخر. كان سكان الشارع القلائل يجتمعون فيه إذا ما قصـــفوا المدينة. خرجت من الباب وركضت بجوار الجدران حتى دخلت البيـــت الآخـــر، هناك وجدتهم جالسين على الأرض داخل إحدى الشقق فـــي الـــدور الأرضي. كان البيت يعطى ظهره للشرق ملتصقا بظهر بيت آخـــر يطل على الشارع الخلفي. كانوا يدخنون، وكنا نعرف وجوه بعضنا الـــبعض، يحيى بعضنا بعضا برفع الأيدي إذا كان القصف شديدا أو نلقى السلام إذا كان القصف بعيدا أو قاصرا على الجبهة.أرهفت آذننا السمع، نـــتابع القذيفـــة أو الصاروخ، نسمع صوته وهو يعبر فوق البيوت، فوق المديـــنة، ندرك قبل أن ينفجر إلى أين هو ذاهب أقريب من هنا أم بعيد. وحيـــنما يشـــتد الصـــفير فـــترتعد الأرض من تحتنا نضغط على الأرض بأيديـــنا وأجســـادنا، نحنى ظهورنا ناظرين إلى الأرض، نغمض عيوننا، ثـــم يحـــدث الانفجـــار. تهتز النوافذ، يتساقط زجاجها وتهب على أنوفنا رائحـــة البارود. نرفع رؤوسنا ناظرين إلى بعضنا البعض، نسأل دون أن نتكلم هل هناك شيء، أي إصابة، فقد تدخل شظية من النوافذ أو تخترق الجـــدران لترشـــق في أجسادنا، صدر أو ساق أحدنا، أو تبتر رأسا كان قائما.

( يـــأتون من شمال المدينة. التقت عيوننا. أصوات هادرة كموج الـــبحر تقـــترب فـــي الظلام، تتجمع وتقوى، تزحف، تهدر على الطريق

الرئيســـي. يـــأتون من الشمال والجنوب، تلتقي أشباحهم في الظلام في مـــيدان المديـــنة الرئيســـي يتكـــتلون يتلاصقون يتقدمون رافعي الأيدي فاغـــري الأفواه حناجرهم تنطلق تجأر. طلقات مضيئة متتالية تومض في الســـماء المظلمة. توهج الضوء، امتزج هديرهم الغاضب بدوى المدافع المضادة للطائرات. انطفأ الضوء )

نلـــتقط أنفاســـنا بعمـــق وننتظر الصفير التالي وهو يقترب حينما نشـــعر بأنـــه يقصـــدنا، يقترب منا، نقول فى أنفسنا إن هناك من يوجه مدفعـــه نحـــو هـــذا المكان، يعرف أن هنا بشرا يريد أن يقتلهم. يتوهج الضـــوء، نحـــنى ظهورنا مرة أخرى ثم تنقطع أنفاسنا، تنقطع، يتوقف الصـــدر عـــن الحـــركة إلا من قلب يد بشدة حتى ينفجر الصاروخ ونشم رائحته النفاذة في الشقة التي نختبىء فيها. انطفأ الضوء.

وإذا مـــا هـــدأ القصف نقوم واحدا وراء الآخر إلى دورة المياه، يـــنطلق الـــبول بغـــزارة، سائل أصفر في البداية ثم يعود أبيض، لا نظنه بـــولا. أبـــدا تـــتحلل أجســـامنا وأحشاؤنا من الداخل إلى ماء يتدفق إلى الخـــارج. وتمـــتلىء دورة المـــياه بالماء والرذاذ والرائحة النفاذة التي تخـــتلط بـــرائحة البارود، تخففها وتكثفها رائحة السجائر ودخانها الذي يعـــبق الحجـــرة. يعجز بعضنا عن السيطرة على نفسه أثناء التبول، فلا يســـتطيع أن يصوب بوله نحو الفتحة المخصصة لذلك، إنما يندفع الماء مـــتدفقا على الأرض، وفى الفتحة أحيانا، والظلمة السائدة لا تجعلنا نحدد المكـــان بالظبط، وكنت أخجل من صاحب الشقة الذي نختبىء عنده. كنت

أحـاول ألا أذهـب كثـيرا إلـى دورة المـياه حتى لا أكون مشتركا مع الآخريـن فـي تلويث المكان، وكان الآخرون؛ بعضهم يصدرون أصواتا، يخـرجون غـازات، يفقـدون سيطرتهم على أنفسهم، أو يطلقونها أنها تضـغط على أمعائهم وأعصابهم، فنسمع الأصوات في الظلمة تصدر من أكثر من مكان.

يـتوهج الضـوء. عندما يخفت القصف نتحرك في أماكننا، نسعل نحـرك أيديـنا علـى وجوهنا ننظر في ساعاتنا ينظر كل واحد في وجه الآخـر. انطفأ الضوء. يحاول أن يتجاذب معه أطراف الحديث ثم تنطلق ضـجة أو كلمـة أو صـوت ما، تتحول الشقة إلى ما يشبه المقهى، كل واحـد يـتحدث، كـل واحد يسمع، نرهف آذاننا إلى ما يحدث بالخارج، للأصـوات الخارجية، وكل منا يقول في نفسه دون أن يسمعه أحد ( لقد انـتهى القصف، ولم يحدث لي شيء )، وإذا ما انطلق مدفع مرة أخرى يصـمت الجمـيع. توهـج الضـوء. تنقطع الأحاديث والتعليقات، تصفر الوجـوه ويـتخذ كل واحد الوضع الذي اعتاد عليه وقت القصف، وجوه تـتقلص، وجوه تشحب وتهرب منها الدماء، وجوه تمتلىء بالدماء حتى تحتقـن. مـنهم مـن يقف، يتحرك في أرجاء الشقة، لا يهدأ، منهم من يـتكوم على نفسه لاصقا سيقانه على صدره، منهم من ينام فوق الأرض أو يقـرفص. ويكـون المدفـع الأخير، والطلقة التي سمعناها هي طلقة الـوداع، هـي الطلقـة التي تأتى متأخرة بعد أن ينتهي كل شيء. انطفأ الضـوء. والـذي لا شـك فـيه أن الذي كان يصيبني، يصيب الآخرين، بعضـهم، كثيريـن مـنهم. أعصابي وعظامي لا تحتمل وضع القرفصاء

علـــى الأرض أو الوقوف، إني أجلس متربعا أو مادا ساقي أمامي. عندما يشـــتد القصـــف الملم ساقي تحتي، أجلس متربعا، أحنى رأسي وظهري مع كل صاروخ أو أسمع صفيره، وإذا بنا نسمعه ينفجر في آخر المدينة أو في المقابر.

( يبكون،يخمشون وجوههم،يرتمون على الأرض..)

أنحـــنى ثـــم أعتدل ،أنحنى ،أشد قامتي متنفسا بعمق عند لحظة الانفجـــار. يـــتوهج الضـــوء. تتقلص عضلات ذراعي وظهري ،تتقلص عضلات البطن ،أشعر بالدماء وهى تضرب عظام رأسي من تحت الجلد، تضـــرب عظام رأسي. شعري يقف. انطفأ الضوء. يصيب الإعياء الجهاز العصـــبي فـــيكف فـــي وقت ما، خلال القصف عن العمل، فلا يتقلص أو يـــتوتر، ولا يرتخي، إنما يكف عن أداء وظيفته. في تلك اللحظات أشعر بالـــنعاس، تـــثقل الجفون يرتخي الرأس في تعود القذائف ولا الانفجارات تهزنـــي، أنمـــا هـــي رعـــدة بسيطة ثم لا شيء بعدها ،ولا تعود العينان تهـــتمان بـــأن تحدثا أو تغمضا بعد كل انفجار، إنما هي مرتخية، سادرة فـــي نصف نعاس، وأكون كالمخدر الذي يدرك كل شيء لكنه لا يملك رد الفعل.

( فمهـــا يـــزداد اتســـاعا كلمـــا ابتســـمت. فـــوق رأسها منديل احمر.أصابعها عارية، لا دبلة ولا خاتم. طلبت لها فنجان قهوة )

توقـــف قصـــف المدينة، المدافع ما زالت تضرب. توهج الضوء. وتطلـــق قذائفهـــا بعـــيدا. اعتدلنا وتنفسنا لعمق.كان الصمت شديدا في

الوقــت المحصــــور بيــن قذيفـــة وأخـــرى، إنهـــا طلقات الوداع، إنهم ســـيتوقفون، ســـتتوقف المدافـــع ويبدأ الصمت ثانية، ثم تعقبه الأصوات البشرية، أصواتنا. كانت المدينة بسكانها القليلين صامتة. انطفأ الضوء. والفجر يطاع عليها، والمعركة على وشك الانتهاء.

مـــع طلـــوع الشـــمس كــف كل شيء عن الحركة، شعرنا جميعا بالإرهـــاق. لــم نـــنم طول الليل. خرجت من البيت فصدم ضوء الشمس عينـــي. ســـمعت بعــض النداءات. كانت عربة الإسعاف تمر في شوارع المدينة وصدى جرسها يتردد خلال الصمت الكثيف. الناس يخرجون من هــنا ومن هناك متوجهين إلى أعمالهم واقفين بجوار المخابىء ويسألون بعضـــهم بعضــا عـــن الإصابات، وهل كان الاشتباك أعنف من الاشتباك الـــذي حــدث منذ يومين، وكيف أننا في الأيام الخيرة نستمر في الضرب حـــتى بعــد أن يســـكتوا هم. عجزوا عن قصف المدينة طول الوقت كما كـــانوا يفعلون. الآن يصمتون هم أولا. بعضهم يركض في الميدان متجها نحـــو المستشـــفى. من الشارع التالي رأيته، يركض وقد تشرب الجلباب بـــالدم وأخـــذ يتقاطر على الأرض. الرجل يعدو وقطرات الدم تسيل على الـــتراب فـــوق الطـــريق، وكلما ابتعد الرجل لاح الأثر من ورائه قطرات متتالـــية حمـــراء مـــتعرجة تتبع الرجل الذي يعدو، وعلى مدخل الشارع الآخـــر المؤدى على الميدان سمعت قرقعة عجلات خشبية، دلفت العربة بحمارهـــا إلى الميدان، والرجل الذي يسير بجواره يضربه بحبل. الحمار يســـرع والرجل الذي يجرى بجواره حافي القدمين. لم أستطع أن أرى ما فـــوق العـــربة، ثمـــة شيء، أشياء تهتز تحت غطاء من القماش القلع

وقماش القلع ملوث بالدماء.

( في الشوارع والحواري الخلفية، في هذه الأماكن، ومن شرفتي ونافذتـــي كنـــت أراهـــا. فـــي نومـــي، كنـــت أفـــزع..الحجارة في كل مكان..الحجارة ولا أحد..)

علـــى شـــفتيه ترتسم ابتسامة مكورة تستقر على وجهه في شكل دائـــرة ذات ثقـــب، وعندما يبتسم تذوب الدائرة في خط مقوس ويختفي الثقـــب. يملك كشك السجائر الذي يقع في أول الشارع، أقف عنده أوقاتا كثـــيرة، أتبادل معه الأحاديث الطويلة. هو واقف داخل كشكه ،وأنا واقف خارجه مستندا إلى حافة نافذة الكشك.

يضـــع موقدا كحوليا صغيرا ووعاء من الألمنيوم يسلق فيه اللحم أو يضـــع فيه فولا ،وبراد شاي وأكوابا زجاجية صغيرة. قال لي إنه لم يغـــادر بيته في الليل وإنه تركه قبل أن ينتهي الاشتباك. سألته مرة وأنا واقـــف معـــه بجوار الكشك لماذا لا يركب طاقم أسنان ؟. ابتسم. ظهرت لثـــته حمـــراء قانـــية. قـــال : لست في حاجة إلى طقم أسنان، إني أبلع طعامي بلعا، لا وقت للمضغ.

أراه فـــي الصباح عندما أخرج من البيت، ينتظر عودتي في الليل، نســـأل عـــن بعضنا بعد كل اشتباك. هو رجل عجوز هاجرت أسرته، له ابـــنة أخـــرج لهـــا تصريحا لدخول المدينة. في بعض الأحيان يعود من أجازتـــه ويصحبها معه. أراها تجلس خلف الكشك، نحيفة القوام صامتة،

لهـــا شـــعر طويـــل وعينان واسعتان. يقول لي إنها تساعده في شئونه الخاصـــة، غســـيل طـــبخ، هي تؤنسني حينما أعود إلى البيت..وإن كنت أخاف..

( لم يكن صدرها بالضخامة إلى رأيته عليها أول مرة..)

تركـــته، قلت له إني سوف أتجول حول المنطقة لأرى ما حدث ، وتركـــته داخل الكشك. مررت على البيت، بيته، رأيت الفتحة التي دخلت مـــنها وقفـــت أمامه. ما زالت محتوياته بالداخل. المكتب الكتب ملابسه. لكـــنى اكتفيـــت بســـاعة الحائط التي لا تريد أن تعمل، ودفتر اليوميات. وكـــان المـــنديل مـــا زال في جيبي. أحيانا، كنت أقف خارج البيت أمام الـــباب وأصفر له فكان يفتح النافذة وقول لي اصعد، أو ينادى من داخل حجـــرته : هـــا أنـــا قادم. وكنت أسمع خطواته السريعة وهو يقفز فوق درجات السلم مندفعا من الباب الخارجي.

تكومـــت جـــدران الدور العلوي أمام الباب وسدته، وكانت الفتحة التـــي نفذنا منها في الجانب الآخر. دخلنا منها إلى الحوش ثم دفعنا باب حجـــرته. لاحـــت الظلمة من خلال الفتحة. أعرف البيوت المصابة حديثا مـــن رائحـــتها، مـــن الغـــبار الـــذي يكون ما يزال ثائرا يملأ الفراغات والثغرات، ومن الأحجار الجديدة التي تسقط في الطرقات.

صـــعدت علـــى شـــقتي. فتحـــت المـــاء علـــى رأسي، وقفت في الشـــرفة..الـــنوافذ مغلقة، مفتوحة، غير موجودة، لا يوجد يطل منها. لا يوجـــد إنســـان ما بالداخل. في الشارع الذي أقطن فيه اثنان فقط، أحيانا

أراهمـــا فـــي الصباح، وفى الليل ألمح الضوء المتسرب من خلف إطار النوافذ المغلقة.. أقابلهما أحيانا في الشقة التي نختبىء فيها.

صـــمت ثقـــيل كثـــيف ذلك الذي يعقب قصف المدينة. وعلى مدى ســـاعات طويلة تتحرك الحياة ببطء في الشوارع، داخل البيوت، وتستعيد الطـــيور القليلة أصواتها، مترددة في بادىء الأمر، ثم منطلقة متنقلة من مكـــان لآخـــر. تظل المخابىء محتفظة بسخونة الأنفاس وبرائحة البارود والناس، بينما تزداد الحركة في المستشفيات وتفريغ زجاجات الدم.

جـــرس إحـــدى الكـــنائس يدق، يرسل دقاته فوق برجه المرتفع، يسرى صداه عبر المدينة، عبر الأشجار المدخنة والدخان المتصاعد من البـــيوت المحـــترقة. أسمع دقات الجرس من الشرفة، دقات قصيرة ذات رنيـــن مكتوم لكنها قوية، أشعر بها فوق ضلوعي فوق جسدي. غادرت البيـــت وســـرت في الشوارع أبحث عن الجرس. هناك آخرون يسيرون علـــى جانبي الشوارع، يلتصقون بالجدران، يسرعون إذا ما اقتربوا من ميدان واسع أو عبروا أرضا خلاء.

أتتـــبع صداه، أي كنيسة هذه التي يدق جرسها ؟ إنها تدق للموتى للذيـــن دفنوا تحت الأنقاض. لكن أي رجل هذا، أي قسيس ذلك الذي يدق الجرس من فوق البرج ؟

اقتربـــت مـــن الكنيســـة. انتزعت الصواريخ سورها الحديدي من الأرض وألقـــت بأبوابـــه الحديديـــة بعـــيدا، وفى المدخل الأمامي سقطت

الســقيفة ذات الأحجــار المشطوفة الملونة بعد أن سقطت عنها الجدران بــنوافذها الزجاجــية الواســعة وأطــرها المزخرفة وأستارها الحريرية الرمادية.

لاح الــبهو الداخلــي الـ ــسع بصفوف مقاعده التي يجلس عليها المصــلون وردمــت الممرات الضيقة التي تتخلل المقاعد وانقلب المذبح واختفى تحت أكوام التراب والأنقاض.وعلى الحائط المواجه كان المسيح المصــلوب قــد انــزلق طرف صليبه العلوي من فوق الحائط فأصبحت قدماه منفرجتين إلى فوق ورأسه بتاجه الشوكى ساقطا إلى أسفل. وبقى بــرج الجــرس واقفــا تملــؤه الحفر والفجوات. وفى أعلى البرج رأيت الجــرس يــدق، يــتجه يميــنا ثــم يسارا، وبين الاتجاهين تضرب كرته الحديديــة الثقــيلة جــدران الجــرس النحاسية فتصدر صوتها المكتوم الحزين الثقيل وتردد صداه في أجواء المدينة المدخنة.

حاولــت الوصــول إلــى قــاعدة البرج مجتازا السقيفة الأمامية المــتهاوية وكانت أعمدة البهو ملقاة على الأرض وفوق المقاعد، وكان الممــر المــؤدى إلــى مدخــل البرج مردوما بالحجارة والأخشاب وقطع الــزجاج.اســتطعت أن أنفذ من فجوة في نهاية الممر. في ساحة البرج الضــيقة رأيته بعباءته السوداء الفضفاضة وذقنه الطويلة تغطى وجهه، يــتدلى الحــبل الغليظ من وسطه، ومعلقا من كلتا ذراعيه في طرف حبل الجرس الملتف على قبضتيه يشب على قدميه فتنحسر عباءته وثوبه الأســودان عــن ساقيه ثم يهبط مقرفصا على الأرض، يشب ثم يقرفص، جاذبا بقوة حبل الجرس.

( قـبل أن أرفـع فنجان القهوة إلى فمي انطلقت المدافع، دعتني للاختباء معها في قبو الفندق )

لـم يرنـي ضـارب جرس الكنيسة ، كان وجهه جامدا وحدقتاه ممتلئتيـن بـالدموع، ظللـت برهة أتطلع إليه، كان مستغرقا في عمله، انزلقـت الدمـوع مـن عينيه، تدحرجت على شعر ذقنه الكثيف وتعلقت قطرات الدموع بالشعر الطويل المجعد فوق صدره.

انسـحبت مـن أمامـه وابتعدت عن برج الجرس عائدا أدراجي محـاولا ألا أصدر أى صوت. سرت بجوار السور الحديدي المنزوع عن الأرض. كـان الجـرس لا يـزال يدق، تخيلته وهو يتعلق بالحبل ويشده إلـيه ثـم يرخيه والدموع تنزلق على شعر ذقنه وصدره. سمعت نداء خلفـي، خلف السقيفة المتهاوية، التفت ورائي ثانية، توقف الجرس عن الـدق برهة ثم أخذ يدق ثانية، ثم توقف. كانت عيناه مخضبتين بالدموع وكانـت القطـرات الكبيرة من الدموع تلتمع وهى معلقة بأطراف الشعر المتجعد في ذقنه وتسقط على الأرض.

أسـرعت بخطواتي مبتعدا عن الكنيسة، كان سورها يمتد مسافة كبـيرة بحذاء الشارع ويلتصق به مباشرة سور الفندق الكبير. عند بوابة الفـندق فكـرت في الدخول إليه. وقفت برهة في المدخل التقط أنفاسي، تطلعـت نحـو المقاعد الملتفة حول المناضد الصغيرة في نهاية المدخل، جلسـت بجـوار النافذة وتطلعت من خلال زجاجها متوقعا رؤية القسيس لكنى لم أجد أحدا.

مــرت أمام النافذة عربة صفراء بها بعض الجنود وكميات كبيرة مــن الخــبز. وقف بجواري رجل أسود بجلباب أبيض، نظرت إليه، كان يبتسم وكانت أسنانه بيضا بارزة للخارج، طلبت منه شايا.

( لــم أجدها بالصالة. انتظرت دون جدوى. سألت أحد جرسونات الفندق، قال لي إنها مريضة في حجرتها، قلت له ألا يستطيع أن..)

كان الفندق خاليا. سمعت وقع أقدام على البلاط الداخلي، ثم رنين جــرس وكلامــا بعــيدا. عــثرت فوق كم سترتي على خيط رفيع اختلط بالوبــر فـــي كــم السترة. سحبت الخيط فتعلق في أصابعي. تظل خيوط العنكــبوت عالقــة بملابــس، تارة أراها على أكمام سترتي وتارة أخرى علـــى الصـــدر والظهــر. العناكب ملأت بطونها، تتضخم وتغلظ أرجلها الطويلــة المعقــدة، لا تأكل الحشرات إنما تعودت على شيء آخر. طار خــيط العنكــبوت فـــي الهواء ثم هبط ببطء نحو الأرض بجوار المنضدة التي أجلس إليها. يجب لأن أزور قبره ثانية.

رأيــته أمامـــي. يضع فنجان الشاي وكوب الماء فوق المنضدة. نظــرت إلـــى وجهه. كان أسود البشرة، يبتسم مفتخرا بأسنانه البيضاء. ســـمعت وقع أقدام فوق البلاط، يقترب الوقع، كان وقعا حادا، وقع حذاء نســائي. مـــن خلــف الجرســـون الأسود رأيتها تعبر من الباب الداخلي مـــتجهة إلـــى الباب الخارجي. ترتدي جيبة سوداء وبلوزة سماوية فوق الصـــدر ، شـــعرها معقـــوص إلى أعلى. مددت يدي وتحسست المنديل

الأحمـــر الذي كان ما يزال في جيبي. كان الجرسون الأسود قد أعطاني ظهـــره وابتعد عنى في خطوات قصيرة وهو يهز الصينية بيده، واختفى من أمامي.

بقيـــت وحـــيدا فـــي الصـــالة الطويلة مع بقية المناضد والمقاعد الشـــاغرة، قمـــت مـــن فوق المقعد ثم جلست ثانية. لا يعمل في المدينة ســـوى فـــندقان، هذا أحدهما وأكبرهما، العاملون في الفندق الآخر كلهم مـــن الـــرجال..أتكـــون هي ؟ أخرجت المنديل الأحمر من جيبي ثم دفعته ثانـــية. عـــادت، ســـمعت وقع قدميها على السلالم الخارجية، عبرت من أمامـــي ونظرت نحوى وهى تدخل إلى مكتب الاستقبال، سمعت صوتها وهـــى تكلم شخصا آخر ثم صوت حذائها وهو يطرقع فوق البلاط مبتعدا عن المدخل.

( واحـــدة، أربعـــة، خمسة، إحدى عشر، يطلون من النوافذ، من الأبـــواب، مـــن فـــوق العـــربات، برؤوسهم بأجسادهم، يلوحون بأيديهم بمـــناديلهم، الـــرجال والنساء والأطفال، ينادون ويصرخون، يبكون، يرد الذيـــن يمـــر علـــيهم القطـــار ببكاء كالعويل. اثنا عشر، ثلاث..، القطار الطويل يسير يزحف ببطء وهو يغادر المدينة )

ـــ لماذا لم تنم ؟

ـــ إني جائع..سآكل وأنام.

كـــان يقـــف أمامي في الحجرة. لم يجلس على المقعد الذي قدمته

لــه.أخذ ينظر نحوى ثم حرك عينيه نحو محتويات الحجرة. كانت عيناه غائرتيــن تحــيطهما هــالات ســوداء وكانت عظام الفك بارزة، مرتديا بيجامة يدس يديه في جيوبها.

ــ عن ماذا تبحث ؟

ــ المنديل..

ــ أي منديل ؟

ــ المنديل الأحمر..والساعة.

اتســعت عيــناه. كانــت الساعة موضوعة بجوار الحائط وكانت تعمــل وترسل دقاتها في الحجرة. وكان المنديل في جيبي ولا أعرف من الذي قال له إني أخذته.

ــ هل تريدهما ؟

ــ المنديل..

ابتســم ثــم أعطاني ظهره. تحرك باب حجرتي ودخلت منه رأس القســيس نظر نحونا ثم سلط عينيه فوقه. كانت الدموع ما تزال تخضب وجهــه وذقــنه، تراجع رأسه وأغلق الباب وراءه. نظرت إليه، البيجامة ممــزقة من الخلف ملوثة بالدماء، التفت نحوى، توقعت أن يسألني عن الســاعة والمنديل، رفع سترة البيجامة وشد من بطنه قطعة لحم حمراء قائلا :

ــ خذ..كل لحما.

ســمعت خــبطا على باب الشقة. كان الضوء مشتعلا فوقى، قمت مــن الســرير فوقــع الدفتر على الأرض، لم استطع أن أحدد مكان باب

الحجـرة بسـهولة، أخـذت ألف في الحجرة حتى أمسكت يدي بمقبض الـباب فخرجـت إلـى الردهة وفتحت باب الشقة، رأيت صاحب الكشك يقف بالباب.

ـ جئت أسأل عنك

ـ تفضل..

ـ لم أرك عندما عدت.متى عدت ؟

دخـل وجلس على مقعد بجوار السرير، جلست أنا على السرير، نظـرت حولـي، سـمعت للصمت صوتا كالنشيش، بلعت لعابي أكثر من مرة ووضعت إصبعي الكبيرة في أذني

ـ هل أغلقت الكشك ؟

ـ لا.. ابنتي حضرت، هي هناك، في الكشك.

ـ في هذا الوقت..

ـ أكنت نائما ؟ هل أقلقتك ؟

ـ لا.. كان نومي متعبا..هذا ميعادي.أعمل لك شايا..

ـ ليس وقته..أراك بعد قليل عند الكشك.

قام من مكانه وتوجه للخارج، قلت له وأنا في الحجرة :

ـ سلامي إلى ابنتك.

أغلـق بـاب الشـقة، سمعت وقع قدميه على السلالم الخشبية، خرجت إلى الشرفة، كان ضوء إحدى النافذتين مشتعلا، لم يحضر الآخر بعد.

( سـقف القبو منخفض، لا نستطيع الوقوف، جلسنا فوق مقاعد

قديمــة، صــناديق البيرة وعلب من الصفيح تحيط بنا. أحد الجرسونين قــرفص بجــوار مدخل القبو، أسود، نرى بريق عينيه وهو يلوى عنقه متطلعا إلى الخارج )

وددت لــو خرجت ولكن الوقت كان متأخرا. لن ينتظرني صاحب الكشك طويلا، فمعه ابنته، سوف أذهب إليه في الصباح. اشتعل الضوء. كنــت أريــد أن أذهب للفندق مرة أخرى. لم أكن أعرف كيف سأحدثها. توهج حائط البيت الذي أمامي. نظرت ناحية السماء، كانت تلتهب بثلاثة مشــاعل مضــيئة، ظلــت ترســل ضــوءها القوى فوق المدينة فأنارت الشــوارع، تراقصت ظلال البيوت ثم أخذت الأضواء تخفت رويدا رويدا، تقلصت الظلال، تلاشت وأطبق الظلام ثانية، لكن انطلق مشعلان آخران.

غادرت شقتي وصعدت فوق السطح، تحت الضوء المتوهج لاحت لــي الأســطح الأخــرى غير منتظمة، مبعثرة، فجوات كبيرة مظلمة هي بــيوت انهارت فتركت فراغات يسقط فيها الضوء، أو يلقى عليها بظلال البــيوت الأخــرى، بعــض البيوت القائمة بلا نوافذ أو أبواب، تبدو فيها فــتحاتها مظلمــة يــتراقص الضــوء علــى مداخلها ثم يبتعد. الأشجار والجــدران تلوح أمام المشعلين أشباحا ساكنة نائمة، ومع اهتزاز أضواء المشــعلين تتراقص الظلال، تستطيل وتنكمش في النهاية، تختفي ليغرق كــل شيء في الظلام والصمت. شعرت بالبرودة، هبطت ودخلت حجرتي. استرحت فوق سريري بملابسي كاملة وأنا أرتعش.

( أركــض، أنــا أركــض معهم إلى المخبأ، يدفعونني من الخلف

بـــأيديهم، بأجســـادهم، فـــأدفع أنـــا الذين أمامي. تتخبط سيقاننا ببعضها الـــبعض. أمام المخبأ يسقط أحدنا على الأرض، يسيرون فوقه، يتدحرج فوقه الجميع وينسد باب المخبأ ويغطينا التراب. على بعد خطوات منك، لكـــنك لا تدركـــه أبـــدا، تســـعى إليه بكل قوتك، لكن هناك ما يشدك إلى الخلف أو يجعلك ثقيلا جدا، أو يبتعد الباب عنك. أنا أركض أركض )

عـــندما خرجت إلى الشارع رأيتها تجلس خلف الكشك تحت ضوء الشـــمس. كـــان هو واقفا داخل الكشك، وحينما وقفت أحدثه كنت أراها مـــن خـــلال الـــباب الخلفي المفتوح، من وراء ظهره. ابتسم لي كعادته فظهر الخط المقوس على الفم وهز لي رأسه.

ــ لم تحضر بالأمس.

ــ واصلت نومي.

نظرت نحوى من خلال الباب، وجهه وعيناه وفشتاه، أومأت لها فأومأت لي.

ــ أرسلت لك السلام معه

ــ وصل..شكرا.

تمعـــن فـــي وجهي وقال إنه يراني مريضا ويجب على أن أعود لأســـتريح بالبيـــت. قلت له إني كنت أرعش في الليل بعد حفل المشاعل، وإنـــي سأعود بعد قليل. اتخذت طريقي إلى الفندق. فى الكافتيريا جلست بجـــوار الـــنافذة، أغلقـــت زجاجها، أبقيت جسدي وسط بقعة كبيرة من ضـــوء الشـــمس، ضـــممت السترة حول صدري، كنت مبللا بالعرق من الداخل،أرتعـــش. انـــتظرت، لـــم يـــأت أحد، لم أسمع دقات حذائها على

الأرض وبـدا الفندق مهجورا بلا حركة أو صوت، لم أسمع أحدا يتحدث بالداخل والجرسون الأسود لم يأت [illegible] ماذا أشرب.

( تضـغط علـى ذراعي [illegible] بي والقبو يهتز. رائحة البارود مـلأت فـراغ القبو الضيق، [illegible] برائحة بقايا البيرة في الزجاجات الفارغـة ورائحـة البصـل و[illegible]، زحف الجرسون الأسود وقرفص بجوارنـا. انـزلق مـنديلها [illegible] من فوق رأسها، التقطته، مدت يدها لتأخذه مني. قلت لها اتركيه لي [illegible] به.)

فـي الحائط بجوار النافذة جرس صغير، ضغطت عليه، لم أسمع صـوته بالداخل، نظرت أسفل [illegible] كان السلك مقطوعا. انتظرت قليلا ثـم صـفقت فترددت ضربات [illegible] في المكان والصالة الخارجية. ظهر وجـه الجرسـون الأسود متلفتا [illegible] القاعة، حينما عرّفني ابتسم، هز لي رأسـه ثـم اخـتفى. ظللـت [illegible] من النافذة، الشمس مشبعة بالصمت وطـيور قليلة أسمع صوتها فوق أشجار حديقة الفندق ورجل يسير فوق دراجـة وسط الشارع وثمة صوت عربة سرعان ما ابتعد ليعود الصمت والهدوء.

مـن خلـف السـكة الحديد تراءى مبنى كبير له طوابق عديدة تطايـرت جـدران الـثلاثة طوابق العليا فهبطت السقوف الضخمة على نفسـها، ثلاثـة سقوف من الأسمنت المسلح يتلاصق بعضها فوق بعض بعـد أن تطايـرت الجدران إلى الشارع وفوق البيوت المجاورة وبقيت السـقوف الـثلاثة مهـددة بالسقوط إلى الشارع في أية لحظة. لاحت

الجـدران الداخلـية بألوانها الصفراء والحمراء وانعكست أشعة الشمس على صفحة من بلاط ة القيشاني في حمام بالدور الخامس .

تمـتد السكة الحديد قريبا من الفندق، أراها من النافذة بلا أسوار وقـد خرجـت من بين القضبان، ومن تحت الزلط الأسود الملوث بالزيت القديـم المتـناثر بيـنها. أعشاب كثيفة ذات سيقان ممتلئة في المنتصف تحمـل فـي رؤوسها زهورا ملونة كبيرة صعدت إلى أعلى وأخفت كل شـيء كـأن لم يكن هناك سكة من قبل، سدت الطريق الذي كان القطار يشـقه عـبر القضـبان المتوازية. أجد على مسافة غير بعيدة سدا من الأعشاب تندس فيه القضبان، تقف العين عنده فلا تبصر بعده شيئا.

( لم أستطع الخروج، بقيت عنده، اشتد القصف فدخلت معه تحت منضـدة كبيرة في حجرة داخلية. تقرفص زوجته على الأرض بجوارنا، جـدران الحجـرة تهتز بشدة، سلك اللمبة الكهربائية يهتز بعنف، ترتطم اللمـبة بالسـقف فتـتحطم، شممنا رائحة البارود. قلت له : البوتاجاز. زحف على يديه وقدميه إلى المطبخ، انفجار شديد..و.. )

سـمعتهما يـتحدثان فـي الداخـل، يتردد صوتهما في الصالة، يقترب..

ــ اصعد إليه ثانية.

ــ لا.. لن أصعد إليه..إن نومه ثقيل.

ــ إنه يعرف مواعيده..هو لا ينام.

ــ أخبره أن يترك المفتاح، لماذا يغلقها ؟

ــ أسمعه يبكى في الليل، عندما أقترب من الباب ويشعر بي يكف عن..
ــ وماذا قلت له ؟
ــ قالت أن لا أسأله أو أضايقه. ماذا أفعل له..هو حر.

( قالت لي هل تأخذ شيئا تضعه تحتك. لم أرد عليها. رد عليها وهو يزحف : اسكتي. تدحرجت الحجارة منفصلة عن الجدران والسقف..)

سـمعت وقـع قدمـيها فـي الداخل. رأيتهما عند مدخل الصالة مقتربيـن مـن الكافتـيريا. كـان هـو أحدهما ،أسودان فوق رأسيهما عمامـتان ناصعتا البياض، نظرا نحوى تقدم منى الذي يعرفني. لم ألاحظ فـي المرة السابقة أن له أسنانا أمامية بارزة يداعبها بشفته السفلى كلما اقترب من أحد.

مـن خـلال الشـرفة رأيت الواجهة المقابلة لفندق آخر. زجاج الـنوافذ مهشـم والـدور العلوي لم يبق منه سوى نصفه بعد أن طوح صـاروخ بسقفه إلى الشارع الخلفي. وقفت الجدران المصابة المكشوفة أمـام أشـعة الشـمس وظهـرت أسيخ الحديد الملتوية بعد أن تناثرت الحجارة وتحطم الأسمنت من حول الكمرات الحديدية.

( تحت الأرض، في المخابيء، في الحجرات الداخلية، في الأقبية..)

لـم أكن معه حينما قصفوا المدينة. بعد أن انتهى القصف في ذلك الـيوم سألت مع بعض الأصدقاء عن الآخرين. كنا نمر على بيوتهم بيتا

بيـــتا، بعـــد انتهاء الجولة تذكرته. لم أعرف أين كان وقت القصف. قبل أن أدخـــل إلى الشارع الذي يقطن فيه رأيت جمعا من الناس بالقرب من البيـــت وقـــد تناثرت أمامه الحجارة. كانت هناك شرفة متدلية من الدور الثاني بعد أن انفصلت قاعدتها على جدار البيت.

كـــان الـــناس يبتعدون من تحت الشرفة ويواصلون تحديقهم إلى البيـــت الـــذي أصـــيب فـــي منتصفه فرقدت الأدوار العلوية فوق الدور المصـــاب. سألتهم إن كان هناك أحد داخل البيت عندما أصيب، قالوا أن معظـــم سكانه قد غادروا المدينة منذ أيام. ولم يبق فيه إلا صاحبي. قلت لهـــم ألم يروه قبل الاشتباك.قالوا إنهم نادرا ما يرونه يدخل أو يخرج من الشـــارع، أحـــيانا يتغيب كثيرا بالخارج وأحيانا يبقى وقتا طويلا بالبيت. وجـــاء رجـــل مـــن الدفاع المدني وقال إنهم سيفتشون وينقبون لكنه لا يعـــتقد أن أحـــدا كـــان بالداخل، وأنهم نقلوا من هذا الشارع حالتي وفاة وعددا من المصابين إلى المستشفى. توجهت إلى المستشفى.

( تبحـــث عـــنك، تـــتوقع وجودك خلف كل نافذة، وراء كل حجر، تـــنطلق نحـــو الـــنوافذ والأبواب، نحو الجدران والسقوف، تشم رائحتك فتـــترك نوافـــذ المديـــنة وأبوابها لتسقط على دماغك أنت، تسمع بأذنيك انفجارهـــا داخـــل الأحـــواش المهجورة وبقايا الحجرات. رائحة البارود نفـــاذة قويـــة، الأخشـــاب المحترقة يتصاعد منها دخان كثيف قاتم يغطى سماء المدينة )

ركضـــت فـــي ذلـــك اليوم وأنا أعبر السكة الحديد وأجتاز الميدان بســـرعة، كان هناك آخرون يتجهون نحو المستشفى، وكنت أرى عربات

الإســـعاف تدور محمومة داخلة خارجة من المبنى الأبيض الكبير. دخلت القســـم الذي يجمعون فيه الإصابات، كانت الردهة طويلة، لا أستطيع أن أرى نهايـــتها لأنها كانت منحنية، كلما سرت فيها أجدها تتقوس وتنحني أكـــثر، ولا تقابلنـــي إلا الأبـــواب البيضـــاء الجانبية ورائحة نفاذة تثير الإغمـــاء. فـــي آخـــر العنبر رأيتهم، كانوا يعطونني ظهورهم رؤوسهم محنـــية لا أرى ســـوى أقفيـــتهم وظهورهـــم.حيـــنما اقتربت منهم كانوا صـــامتين، نظـــرت مـــن خلـــف ظهورهـــم، كانت الجثث مطروحة على الأرض، بجـــوار الحـــائط غارقـــة فـــي دمائها التي ما زالت دافئة على ملابسهم، مشوهة ناقصة ضائعة الملامح كريهة الرائحة، فلقد كان الجو حـــارا، كـــان بعضهم يحرك فوقها سعف النخيل حتى يطرد الذباب الذي تجمع فوق الجثث والدماء. وكل من يتعرف على الجثة التي يبحث عنها يحملونهـــا إلـــى المشرحة تمهيدا لدفنها . لم أعثر عليه هناك، وأشاروا ناحـــية دهليز اصطفت فيه أسرة صغيرة ضيق استلقى فوقها المصابون، تختفـــي أجســـادهم ووجوههـــم خلف الأربطة البيضاء الملوثة بالدماء، يتأوهون.

غـــادرت المستشـــفى وأنـــا أســـأل نفسي أين كان وقت الضرب والقصـــف، لا بـــد أنى سأراه أو سأسمع من أحد انه رآه، ربما كان في مخـــبأ وقـــت القصف أو كان خارج المدينة، فإني لم أره منذ أيام مضت. ولـــم أعـــد أبحـــث عـــنه، بل سافرت من المدينة في أجازة طويلة ،وقد اختلطـــت صـــورته بأوضـــاع الجثث المطروحة على أرضية المستشفى والجرحى الذين اختفت وجوههم خلف الأربطة.

حينما عدت تذكرته، لم أتذكره، لكنه برز فجأة في مخيلتي فذهبت أســأل عــنه فقــالوا لي أنهم لم يروه منذ ذلك التاريخ، وكنت أقول في نفســي أنــي فعلت من قبل ما يجب أن أفعله، فلقد بحثت في المستشفى بيــن الجثــث القــتلى وعلى أسرة المصابين فماذا افعل أكثر من ذلك ؟ وخطــر علــى بــالى بيــته، فأنا أعرفه حينما يلتجىء إلى حجرته ليقرأ ويــبقى فــيها أوقاتا طويلة لا يشعر به أحد. قلت للآخرين أن نذهب إلى بيته ونبحث في الأنقاض.

( انفصــل باب الحجرة ساقطا على الأرض فوق المفرش، تشبثت بالأحجــار الثقــيلة الملقاة بجوارنا جاذبا جسدي من تحت المنضدة، من خــلال الغــبار الكثيف ورائحة البارود التي أثارها الانفجار رأيت رأسه، كانت العينان تنظران نحوى والدم ما زال يتدفق من العنق المقطوع..)

مد يده داخل جيبه العميق وأخرج مظروفا.
قال ـــ اقرأ لي هذه الرسالة.
قلت ـــ أريد أولا أن أشرب شايا.
قال ـــ لا يوجد الآن.هو غير موجود.
قلت ـــ من ؟
قال ـــ الذي يعمل الشاي..غير موجود في الفندق

اســتند إلــى حافــة المنضــدة ووضع المظروف فوقها وانتظر، أخرجت الرسالة من الغلاف الممزق وفتحتها.
قلت ـــ إنها من زوجتك..

قال ــ أعرف، اقرأ لي الرسالة

هــناك آخــر كتب لها الرسالة، فالتوقيع يبدو بخط كبير واضح " زوجتك التي تفكر فيك دائما.. "

قلت ــ إنها تقول لك لا تتأخر في الحضور فالأولاد..

قال ــ اقرأ ما هو مكتوب..

قلت ــ ذلك هو المكتوب، أن لا تتأخر في الحضور لأن الأولاد..

قــال رافعــا كلــتا يديــه إلــى أعلــى ــ مــاذا أفعــل هه ؟ نأخذ أجازة بالدور..حينما يأتي دوري أسافر وحينما لا يأتي دوري لا أسافر.

قلت ــ وتقول لك لا تنس اللحم..

أخذ الرسالة من بين أصابعي قائلا ــ أشكرك، امرأة مغفلة.

دس الرســالة فــي جيــبه وقبل أن يستدير قال بأنه سيقوم بعمل الشاي بنفسه من أجلي.

عاد الصمت من جديد وكانت بقعة الشمس قد تحركت بعيدا عنى، جــف العــرق فوق جسدي لكنى ما زلت أشعر بصداع وارهاق شديدين. دلــف ضابط من الباب الخارجي، نظر حواليه وتطلع نحوى ثم تحرك إلى الداخــل. سمعته يتحدث مع احد الجرسونات، أحضر الجرسون كوبا من الشاي وضعها فوق المنضدة، أخفى أسنانه الأمامية بشفتيه معا.

قال ــ هذا أفضل من الفنجان.

أومــأت إليه برأسي، كدت أسأله عنها، لماذا لم تظهر حتى الآن ؟ لكــنى آثرت الصمت حتى لا أثير انتباهه. أخذت أشرب الشاي ببطء ،مر الضــابط ثانــية مــتوجها ناحية الباب الخارجي وهو يعدل من سرواله

وســـترته، فجـــأة انطلقـــت الصـــفارة، ارتعد جسدي وأحسست به يفرز قطـــرات صـــغيرة من العرق الدافيء، قطرات كثيرة صغيرة فوق الجبهة علـــى ظهـــري أســـفل فخذي، تطلعت من زجاج النافذة رأيت الضابط يـــركض فـــي الشارع ملوحا لعربة عسكرية صغيرة، توقفت العربة قفز داخلهـــا وأسرعت مبتعدة في الشارع، اتجهت نحو البهو الداخلي، توقفت أمام مكتب الاستقبال، جاءني الجرسون..
قال ــ سمعت الصفارة ؟

هـــززت رأســـي، سألته عن دورة المياه، تقدمني خطوتين وأشار نحـــو آخر الدهليز ثم توقف قائلا لي بأن أصعد إلى الدور العلوي فهناك دورة مـــياه نظـــيفة وجـــيدة. صعدت وتقدمت نحو أول باب إلى اليسار وفتحـــته، كانت حجرة نوم !، سرير عريض ودولاب وكومودينو ومرآة وســـجادة صـــغيرة فـــوق أرضية خشبية وشبشب من البلاستيك، رأيت نفســـي في المرآة المواجهة، كنت أمسك بمقبض الباب المنفرج، أغلقت الـــباب وفتحـــت الـــذي يلـــيه، رأيته راقدا على السرير بملابسه، يرتدى جوريـــن زرقاويـــن، تقدمـــت إليه لم يلتفت نحوى، ينام على بطنه دافنا وجهه في الوسادة.
قال بصوت خافت ــ هل حضرتما ؟

لـــم أتحـــرك مـــن مكاني، كان الغطاء ملقى على الأرض وبعض ملابسه الداخلية ملقاة وراء السرير من ناحية الباب.
ــ إني أنتظركما

ـ بحثت عنكما

ـ

ـ كثيرا..

أصـدر السرير صرير وتحرك جسده معتدلا ثم نام على ظهره، وقعـت عيناه على عيني، نظر إلى السقف وتنفس بصوت مسموع، رفع ذراعـيه إلـى أعلـى واخـذ يحرك أصابعه يبسطها ثم يقبضها، ارتمت ذراعـاه علـى السـرير ونظـر نحـوى قائلا ـ هل هناك.. هل عثرت عليهما؟

قلت له ـ لا.

قال وهو يريح نفسه على جانبه الأيمن ـ أبحث عنهما، سوف..

أغلقت الباب عليه.

أغلقـت الـباب ثـم فتحت الذي يليه، من نافذة دورة المياه رأيت الحديقـة، كانـت المقـاعد الحديديـة مطوية بعضها فوق بعض بجوار السـور، والمظلات القديمة التي كانت تستخدم في الصيف مطبقة وملقاة علـى الأرض مغطـاة بقـلاع كبيرة انتشرت فوقها أوراق الشجر الجافة وأشياء أخرى أخفت معالمها الأتربة.

خرجـت وتوقفـت بـرهة أمام مكتب الاستقبال ،اهتزت الأرض، بقيت واقفا مكاني، سوف يفعلونها مرة أخرى، المكان رطب وثمة نسمة خفـيفة تمـر مـن الـنوافذ الداخلـية وتمـلأ البهو الذي يواجه مكتب الاستقبال.

( وتطــأ قدماهــا حجرتـــي، تدق على أرضيتها بحذائها المدبب، عــندما تدخل من الباب ستجد نفسها وسط الحجرة، وإذا ما توغلت أكثر فلــن تجــد سوى المطبخ ودورة المياه، سترى المكتب والمقعد والسرير وكتبــي وملابسي القليلة المعلقة على الحائط، ستقضى معك وقتا طويلا ممــتعا، ســتأتي إلــيك دومــا، تطرق بابك فتفتح لها، تفاجئك ابتسامتها المنــتظرة على شفتيها ثم بخطوة تكون هنا بجوار المكتب والسرير، أو بيــن ذراعــيك، فــي النهار، في الليل، في كل وقت ستدخل إليك وتملأ بيــتك، لــن تعــاود ســد أذنيك كلما دخلت حجرتك وأغلقت على نفسك الأبــواب والنوافذ، إذ ستظل مرهفا سمعك فقد تسمع خبطات حذائها فوق الســلالم الخشبية أو ضرباتها الرقيقة على بابك فتسرع إليها مرحبا بها طــاردا الأوهــام وقلــق الانــتظار وتكون بذلك قد تخلصت من وحدتك وأصــبحت لــك أنيسة في مدينة بلا نساء فلا تعود تقضى وقتك متجولا فــي الشوارع الخالية ولا متسلقا أو منقبا في البيوت المهجورة، ستجدها أمــامك لحمــا ودمــا وعظاما، ستضحك في حجرتك وهى تستلقي على الفــراش، ستقوم وتجلس وتنتقل هنا وهناك، تعد الشاي تتوجه بنفسها إلى المطبخ الصغير في ذلك الركن متخففة من ملابسها لتشعل البوتاجاز الصــغير وتعــد لــنا الشاي الذي أعدته أفضل من شاي الفندق، سأراها وهــى تــتحرك في بيتي الصغير هذا بين الجدران الأربعة تمسك البراد والأكواب تحرك الملعقة في داخل الكوب، ها هو صوتها، لا بد أنها هي، ثمــة خطــوات تصعد السلالم، هل تفتح الباب وتذهب لتستقبلها أم تنتظر حتى يدق بابك ؟)

تطلعت إلى الشارع من خلال الردهة الطويلة التي تؤدى إلى السلالم الخارجية،من خلفي كانت السلالم الداخلية حيث الأدوار العلوية وحجرات النوم، هزة أخرى أعقبها انفجار شديد. جاء الجرسونان من وراء مكتب الاستقبال ن [illegible]ا معي، قال واحد منهما : سنذهب إلى تحت..تعال معنا.

سمعت وقع قدميها تهبط السلالم الداخلية آتية من الدور العلوي، لا بد أنها كانت نائمة، نظرت خلفي فوقعت عيناى على عينيها، رأيتها تشد أطراف بلوزتها إلى أسفل وتسوى شعرها بأصابع بيضاء طويلة، توقفت تنظر معنا إلى الخارج ودوى المدافع بدأ يتردد بقوة في أرجاء المدينة، توجهوا ناحية القبو، كنت اعرف ذلك فسرت وراءهم، من هنا كان يعبر معهم إلى القبو، هكذا قرأت في دفتر مذكراته، كان يحدثها هناك ،تحت، هذه أكثر امتلاء تعقص شعرها فوق رأسها، أما ابنة صاحب الكشك فهي نحيفة القوام تضفر شعرها الطويل قليلة الحركة ترتدي ملابس طويلة نوعا ما.

انحنيت ودخلت معهم إلى القبو، رائحة ثقيلة خليط من روائح بقايا زجاجات البيرة والويسكى وربطات الثوم وأجولة البصل، أضاء أحدهما نورا أصفر شاحبا، توجهت هي إلى مقعد وجلست فوقه، في الركن الذي تجلس فيه بعض المقاعد التي تصلح للجلوس، صناديق بيرة فارغة ومملوءة وعلب صفيح، في الجرسونان عند المدخل وجلست أنا على مقعد بجوارها. انطفأ الضوء ثم عاد. أخذ ينطفىء، ويشتعل.

قال أحد الجرسونين : سلك المفتاح قديم..

أرى الوجـــه والعينيـــن من خلال الضوء الشاحب المتقطع، وأرى الصـــناديق والصـــفائح وأجولة الخيش. أسأل نفسي ما الذي يبقيني هنا ؟ ولمـــاذا أتتـــبعها ؟ وددت لـــو أقـــوم وأخرج من القبو، أسير تحت وابل القذائـــف والصـــواريخ وألقـــى إلـــى الريح بالمنديل الأحمر الذي يخص صـــديقي. يعود الضوء لأراها تشبك يديها فوق صدرها، ينعكس الضوء فوق ركبتيها الملتصقتين.

ستقول لي : من أنت ؟ ماذا تريد ؟

ســـأقول لها : إني صديقه وقد عرفت كل شيء كان بينكما أثناء انقطاعي المتواصـــل عـــن المديـــنة، كـــان هـــو يعيش فيها لا يغادرها، له حياته الخاصـــة التـــي يخفيها بعيدا عن أصدقائه، كنت أريد معرفة مشاعرها عـــندما قتلـــته شظية ومات بين الأنقاض في حجرته، تحسست المنديل في جيبي، منديلها، لا يفارقني أبدا، هو له نزواته الخاصة:

قال لي مترددا : لقد ذهبت إلى هناك اليوم..

كـــان يجـــد مـــتعة خاصـــة ســـرية فـــي أن يتجول في الشوارع والحـــواري المهجورة وكثيرا ما كان يتركنا ليصعد إلى بيت خال مهجور مـــتجولا في شققه ودهاليزه، يدخل الحجرات ودورات المياه، يطل علينا مـــن الشـــرفات وهو يشير نحوي بأن أصعد أو أنتظره، كنت أسمع وقع قدمـــيه فـــوق الســـلالم الحجـــرية والخشـــبية أو وهو يتخطى الأحجار المتناثرة ويقفز فوق الحواجز والأسوار والجدران ز

كـــان أحـــيانا يحدثنـــي مـــن فوق ويقول لي : يوجد هنا مقعد أو دولاب، وكـــان يلـــوح لـــي ببعض قطع الثياب التي يجدها في الحجرات المهجـــورة، وكثـــيرا مـــا كنت أناديه من تحت ويتردد ندائي في الشارع ويـــرجع الصـــدى من النوافذ والأبواب المفتوحة والمفقودة والمحطمة، وكـــان صـــوتنا يتردد واضحا بين الأنقاض. أقول له بأن يهبط أو أحذره حـــتى لا يسقط من فوق حائط أو يهوى فوقه سقف مخلوع.وقد شاركته في نزواته في بداية الأمر ثم أقلعت عنها.

قال ـــ فكرت صباح اليوم بأن أذهب إلى بيتها.

قلت ـــ لكنها هاجرت منذ سنة ونصف.

قال ـــ أردت أن أرى المكان فقط.

صمت قليلا ثم قال ـــ والذي لم أستطع دخوله من قبل أبدا.

هكذا كان يحدثني عن رغبات غريبة تموج في نفسه..

وكانـــت الحـــارة خالـــية تماما والبيوت في تلك المنطقة محتفظة بنفسها مغلقة الأبواب والنوافذ.

ـــ أمـــام البيـــت فكـــرت بـــأن أصعد وأرى كل شيء وربما أجد بعض آثارها.

قلت ـــ وصعدت ؟!

قـــال ـــ صـــعدت..كانت السلالم سليمة لكن المدخل كان مظلما تفوح منه رائحـــة عفونـــة، صعدت إلى الدور الثالث ووقفت في ردهة معتمة أمام شـــقتها، تقدمت وقلبي يدق وفى نيتي أن ادفع الباب وأفتحه لكنى لمحت باب شقتها يفتح ببطء وأطلت برأسها وحدثتني.

ـ حدثتك ؟!

قـال ـ همسـت لي معاتبة وقالت لي " ما الذي أتى بك الآن..أخشى أن يراك أحد ؟ "

قلت ـ ومتى عادت هي إلى المدينة؟

قـال مواصـلا وكأنه لم يسمع كلامي ـ لم أر الوجه جيدا، حدثتني لكنى لـم أعـرف عن ماذا كانت تحدثني، كنت أسمع صوتها بوضوح، دعتني للدخول وحينما تقدمت إليها اصطدمت بالباب المغلق.

قلت ـ هل أغلقته في وجهك ؟

قال ـ لا أعلم ، وجدت نفسي أهرول على السلالم وخرجت وأنا أركض في الحارة.

يسـقط الضـوء الشـاحب فـوق شعرها الملتمع المعقوص إلى الخلـف، نسـمع طلقـات المدافـع في الخارج، لم يقصفوا المدينة هذه المرة، جلس الجرسونان عند المدخل.

قلت والضوء يشتعل ثم ينطفىء ـ هل يحتمل القبو ؟

التفتت نحوى، هزت كتفيها قائلة ـ لا يحتمل لكنه قبو.

( ليس إلا محاولة التقاط الأنباء من راديو صغير، في المخبأ، في حجـرة بـالدور الأرضـي، أو صوت أقدام تجرى في الشوارع الخلفية الضيقة مهرولة مختفية في البيوت، في الحجرات الداخلية المظلمة.)

نظـرت إلـى السقف القريب من رؤوسنا، كان من الخشب القديم أسـودت، اسـودت الألـواح العريضة والعروق الخشبية الضخمة وفى الـزوايا نصـبت العناكـب شـباكها. انطفأ الضوء. أخرجت المنديل من

جيبـــي، اعتصــرته في يدي مترددا. عاد الضوء. كانت تنظر تجاه مدخل القـــبو حيث خرج الجرسونان ووقفا بالخارج. أتى بها إلى البيت، دخلت حجــرته، خلعــت مـــنديلها الأحمر من فوق رأسها، ربما، وحينما جلس بجوارهـــا مـــد يـــده وخلــــع عنها سترتها الخارجية وعندما نامت على الســـرير انطلقـــت المدافـــع فقامت مذعورة وهى ترتدي السترة وتغادر الحجرة دون أن تأخذ المنديل، ربما.

كانـــا وحدهمـــا فـــي الحجرة، لم يكن معهما أحد، في البيت وفى الشـــارع، راقدة على السرير بنصف ملابسها، ربما، وكان هو يعد طبق الفاكهـــة، سمعت طلقات المدافع فارتدت ملابسها فزعة وتركت منديلها، ربما.

جـــاءت إليه، سمع وقع قدميها على السلالم الخشبية، انتظر حتى دقت على الباب، عندما فتح ورأت نظراته إليها وهو يدعوها إلى الداخل تـــرددت ثـــم أعطته ظهرها هابطة السلالم فيعدو وراءها، ربما، أمسكها مـــن مـــنديلها، من خلف رأسها فتترك المنديل ينخلع في يديه مواصلة هبوطها وابتعادها عن البيت، ربما.

التفتـــت نحـــوى وجدتني أنظر إليها، تطلعت إلى برهة ثم انزلقت بعينـــيها إلـــى أســـفل، رأت المنديل الأحمر بين أصابعي. فكت يديها من فـــوق صدرها وعادت في وجهي مرة أخرى، فتحت فمها. انطفأ الضوء. توقعـــت أن تقـــول شـــيئا في الظلام، لم تتكلم. عاد الضوء. مددت يدي نحوهـــا ونشـــرت المنديل، لم تمد يدها. انطفأ الضوء. قلت : منديلك ؟.

اشـــتعل الضوء. قالت : من أنتْ ؟. انطفأ الضوء. قلت : صديقه. اشتعل الضـــوء. قالت : صديقه.. من ؟. قلت : أنت تعرفينه..أليس هذا منديلك؟ انطفـــأ الضـــوء. رفعت المنديل أمام عينيها ثم طوته على حجرها. انطفأ الضـــوء. قالـــت : أيـــن هو ؟ اشتعل الضوء. قلت : ألا تعرفين ؟ انطفأ الضـــوء. قالت : لا أعرف. قلت : أبدا. اشتعل الضوء. قالت : أبدا..ماذا حـــدث ؟ انطفـــأ الضوء. قلت : ألم تسألي عنه ؟. اشتعل الضوء.اشتعل الضـــوء. قالـــت : ســـألت..كل من في الفندق سأل، كان يحضر كثيرا ثم تغيـــب مـــرة واحـــدة. انطفأ الضوء. قلت : وأنت ؟ قالت : وأنا..ماذا ؟ اشـــتعل الضـــوء. قلـــت : ألم تعرفي؟ رفعت رأسها قليلا، ملأت صدرها بـــالهواء. انطفـــأ الضوء. سمعتها وهى تطلق الهواء من انفها. اشتعل الضـــوء. سقط الضوء الشاحب على عينيها. قالت : ماذا تقصد ؟ قلت : وجدتـــه ميـــتا تحت الأنقاض. سمعت حركتها في العتمة، وعندما اشتعل الضـــوء وجدتها تحاول الوقوف ورأسها يكاد يرتطم بالسقف. قلت لها : اجلسي. قالت : ميت. سقطت على مقعدها. انطفأ الضوء. قلت : أصابته شظية وهو في حجرته. قالت : كيف حدث..لم أسمع ؟ قلت : المفروض أن.. انطفـــأ الضـــوء. اشـــتعل الضـــوء. قالت : حسبته مسافرا ..هو لا يســـافر كثـــيرا وإذا ســـافر فهـــو يعود سريعا مهما كانت الأحوال هنا. توقفت المدافع عن الضرب وساد الهدوء في الخارج. أطل جرسون من مدخـــل القـــبو وقـــال أن الاشتباك انتهى ثم انصرف. بقينا أنا وهى في القبو، أدرت مفتاح النور فانطفأ، عدت إليها.

ـــ أنت تعرفين بيته..زرته هناك.

ـــ لا أعرفه.. لم أذهب.

ـــ كنت تحبينه.

ـــ لم أذهب إلى هناك..ماذا تظننى؟ دعنى اخرج.

ـــ كان يحبك.. و..

ـــ لم أكن أحبه، كان يشعر بالوحدة، كان يجلس ساعات في الكافتيريا لا يحدث أحدا، كلمته وعندما طلب منى منديلي أعطيته له..هو قال لك ؟

ـــ لا..

ـــ من قال لك..إذن ؟

ـــ وجدت المنديل في حجرته بجوار جثته.

ـــ لم أذهب.

ـــ ستأتين معي.

ـــ أين ؟

ـــ إلى مقبرته.

اشــتعل الضــوء فجــأة. دخل القبو أحد الجرسونين وأدار مفتاح النور

قال لها ـــ يطلبونك في المكتب.

نظرت إليها ـــ ستأتين.

كانت عيناها مبتلتين بالدموع. قامت منحنية وقالت بصوت مبحوح

ـــ سأذهب معك.

خرجــنا مــن القبو. سارت أمامي وفى يدها المنديل، هبت نسمة خفــيفة أشــعرتني بالــبرودة، ســعلت وضــممت الســترة على جسدي المرتعش.

( المــوت لــنا. الحــياة لهم. الموت للموتى الذين يتنفسون غبار الــبارود تحــت الأرض، وتشــق لحمهــم الشظايا. الحياة للأحياء الذين يعيشــون فــوق الأرض، ولا يحــنون ظهورهم أبدا. الأرض تهتز تحت الأقــدام كأنهــا ألــواح مــن الخشب. القذائف تعبر فوق المخبأ، توش، تصــفر، تســحب الهــواء مــن رئاتنا. يهتز باب المخبأ المردود، يندفع مفتوحا ويدلف منه كلب يعوى سرعان ما دس رأسه بين سيقاننا وأقعى في آخر المخبأ وذيله بين سيقانه الخلفية )

إنهــا لفتة منك أن تضعي منديلا أسود فوق رأسك، أنت الآن في حضرة الأمــوات الذين ناموا إلى الأبد لا يقلقهم شيء. في مدينتهم العظيمة ذات الصــمت الخــالد. أنــت الآن تقفين بين الذين فارقونا أو الذين فارقناهم نحــن. إنهــم يسمعون صفارات الإنذار ويسمعون دوى المدافع، لكنهم لا يــتحركون مــن أماكــنهم حتى لو أصابت قبورهم الصواريخ وأخرجت جثــثهم ومزقــتها وطوحت بعظامهم بعيدا، حتى لو فعلت الصواريخ بهم مــا تفعلــه بنا فسوف يقابلون ذلك بالصمت وليس إلا الصمت، لأنهم قد أدوا دورهــم.اختبؤا كثيرا ن ركضوا كثيرا، تنفسوا البارود كثيرا، تحملت أجســادهم وأعصابهم ما فيها الكفاية، وبذلك استحقوا الراحة الأبدية. هم الآن فــي راحــتهم الأبدية لا يهتمون بشيء ولن يرفعوا سقوف قبورهم لــيفروا أو ليبحثوا عن مخبأ، لقد لعبوا لعبتهم وخرجوا من الملعب. أنت وأنــا فــي الملعب. أنت وأنا والآخرون، ها أنت ترين صفوفهم متراصة تمــتد إلــى ما لا نهاية، قباب مرتفعة فوق سطح الأرض لا يفصلها عن بعضــها إلا بوصــات قلــيلة، فالأرض أحيانا تضيق بموتاها كما تضيق

بأحـــيانها، وأحـــيانا تختفـــي هـــذه البوصات وتسيح القباب على بعضها العـــض ثـــم تقوم الريح بتسوية القباب لتعود الأرض كما كانت مسطحة بعد أن تكون قد امتصت كل ما تحتها ويصبح التراب الذي تسيرين عليه الآن هـــو نفـــس العظـــام واللحم والشعر الذي دخل إلى الأرض وننفصل عـــن الأحـــداث التي تجرى حولنا، كما ننسى نحن الموتى بعد حين. إن الحفر التي في نهاية الصف هي حفر جديدة خالية معده لضحايا القصف الجديـــد الذي سيأتي في لحظة ما وفى وقت ما دون إنذار ما أو بإنذار، ووجـــود هـــذه الحفـــر الجديـــدة المعدة سلفا تجعل الأمور أكثر سهولة وســـرعة، مـــا علينـــا إلا أن نلقى فيها بالجثث المشوهة، نترحم عليها ونقـــرأ الفاتحـــة ثـــم نهـــيل عليها التراب ونعمل لها قبابا.احترسي من الأشـــواك، إنهـــا تمـــتد فوق الممرات، فوق الدروب الضيقة بين القبور، إنهـــا تتســـلق كل شيء، لا تعرفين من أي شيء تستمد غذاءها، أو أين مكـــان جذورهـــا التـــي تثبـــتها في الأرض، تمتص غذاءها من العظام، العظام الثاوية تحت قدميك، لذلك تثمر الأشواك أشواكا، احترسي حتى لا تجـــرح ساقك أو تشد رداءك وتمزقه، سيرى ورائي، وإذا خطوت بقدمي فافعلـــي مثلـــي، فقد يعترض طريقي قبر صغير لطفل، أو تعثر ضنى هذه الأشـــواك وهـــى تمـــتد فـــي كل مكان طالما هنا قبور وهناك خلاء. لقد أتعبـــتك، فمـــا كان يجب أن أطلب منك الحضور معي إلى المقابر، لك ما تشـــائين، عودي إن أردت، لكن كيف تعودين بعد أن توغلت بك في هذه المـــتاهات بين هذه الصفوف المتراصة وهذه المباني القصيرة التي تفوح مـــنها الروائح الثقيلة الرطبة. أنت لا تشاهدين سوى هذه الشواهد التي تـــرتفع فوق القبور ،وتسألين لماذا يقيمون لكل قبر شاهدا ،إنه مقبض،

أنا معك إنه مقبض بل أكثر من مقبض. تخيلي معي أن يكون العالم بهذا الشــكل، له قباب وشواهد وروائح ثقيلة وأشواك، إنني أقسو عليك، لكن بالتأكيد إننا لسنا نحلم، إن الذي أمامك حقيقة، وتحت كل قبة، وتحت كل شــاهد جــثة أو هــيكل، لا تحصـــى فقد يكون تحت الهيكل هيكل آخر ، بالتأكــيد إن العـــالم لــيس كلـــه هكــذا، ففي أمكنة أخرى بعيدا عن هنا تســتطيعين أن تــرى أشــياء أخــرى غير هذه، وتشمين روائح عطرة وجمــيلة، وتريــن مشاهد أبهج من هذه. هناك ستشعرين بالحياة وبأنك جمــيلة، أنـــا لا أحدثك عن أحلام، إنها حقائق هي الأخرى، ولكن أحيانا يــبدو لــي أن مـــا أراه الآن أحلاما، وما لا أراه أحلاما أيضا، لكن أين الحقــيقة؟ أقــول لك الحق، لا توجد حقيقة، هذا ليس عصر الحقائق. لقد اقتربــنا، عدى معي في ذلك الصف، قبرا، اثنين، هل ترين القبر الثالث، إنـــه منخفض قليلا، إنه القبر الذي يليه، الرابع. عندما كنت هنا منذ أيام كـــان قـــبره الأخـــير، انظري الآن لقد امتد الصف بعده لمسافة طويلة، قـــباب جديـــدة ومن بعدها امتدت حفر أخرى، وإذا أتيت غدا فلن تجدي الأمـــور كمـــا هـــي عليه الآن، ستجدين مقابر جديدة ن مزيدا من الحفر أيضـــا. قفـــي هـــنا، ســـأتركك قليلا، اطلبي أن يغفر له ذنوبه، أن تهدأ روحـــه، كـــان يحـــبك، يـــبدو أنهم خلعوا الأحجار التي زينوا بها القبر، أخذوهـــا ليزينوا بها قبرا جديدا. الزهور جفت وسعف النخيل تلوى فوق القـــبة المســـتطيلة بينما نبت عود أخضر صغير فوق القبر، عود أخضر رغـــم أن الـــتراب جـــاف جـــدا، بـــل يكاد يتشقق، العود الأخضر الناعم الملمـــس ينحنـــي بين يدي، مليء بالعصارة وتجعله ينمو في هذا القفر وفـــوق القبر. كل شيء هنا يجد ما يقتات به، ما يعيش منه. قلت لي أن

الـذي بيـنكما لـم يكن حبا، قلت لي أنه كان يشعر بالوحدة، حقيقة أنه الشـيء الوحيد الذي لا يطلب، أنما يوهب، هو الآن أمامك تحت التراب، لا يضـيرك إذا قلت له إنك كنت.لا..لا تعترفي بذلك. كان يشعر بالوحدة، أنـت أيضا كنت تشعرين بالوحدة، لا تنكري هذا وإلا لما.. ولما أعطيته مـنديلك، ومن منا لا يشعر بالوحدة، أنا أيضا اشعر بها، كل واحد يشعر بهـا. وسـواء ذهبت إلى بيته أم لا، كان يجب أن تسألي، أن تسعى إليه بنفسـك، تعرفين جيدا إن كل شيء معرض للموت بين لحظة وأخرى مع كـل اشتباك، ومع كل قصف يموت شيء، إنه يدفع الإنسان لفعل ما هو أكثر من السؤال وما هو أكثر من الاهتمام.انظري إلى ذلك القبر المرتفع ذي الشـاهد الكبـير، اقتربـي مـنه واقرئي ما هو محفور على الشاهد سـوف.. إنني كلما جئت إلى هنا أذهب إليه وأقرأ ما هو مكتوب عليه ثم تسـتعيد ذاكرتـي مـا حـدث فـي ذلـك المكـان ( هـنا يثوى جسد العـروس..توفيـت يـوم..عام.. ) وفى ذلك الصباح كنت هنا مع بعض الـرفاق ندفـن صديقا لنا، حدث القصف ليلا ودفناه في الصباح، سمعنا صراخا وعراكا بالقرب من، ذهبت لأرى ما يحدث ن وجدت شابا مرتميا علـى الأرض بقـبل جـدار ذلـك القبر وهو يصرخ ويبكى، كان قد فتح غطـاء المدفن وادخل جسده محاولا أن يسحب جسدا من الداخل فأمسكه حـارس القـبور وغلمانـه، كان يصرخ.. لماذا أنت دون الناس جميعا، إنـك..لـو كنـت رأيته مثلي، مهما كان جميلا ورقيقا، يكون الموت هو السـيد، يفعـل ما يشاء يحطم كل ما هو جميل..يجعلنا أمساخا. من قبل كـانوا يقصـفوننا طـول الوقت، يقصفون البيوت والمدارس والجوامع والكـنائس والحدائـق، يقصفون كل شيء حتى القبور، وكنا نموت طول

الوقـــت. المديـــنة كانـــت مزدحمة، الآن لا يستطيعون أن يقصفونا طول الوقـــت لأنـــنا نسكتهم، وها هي المدينة تخلى نفسها صامتة خاوية حتى يـــتفرغ القـــتل للقتل والعنف للعنف. تضعين منديلك الأحمر فوق القبر، كنـــت تحتفظين به في صدرك، ها أنت تهبينه شيئا، أكتبى بإصبعك فوق الـــتراب أنك تهبين هذا الجسد شيئا، قليلا من السعادة، تهبين هذا الجسد قلـــيلا من السعادة، قليلا منها، قليلا جدا من اجل جسد ينتظر، ربما كان ينـــتظر هـــذا القليل الذي تهبينه، وربما كانت كل الأجساد الأخرى تنتظر هـــي أيضا. إنني أشعر بقشعريرة ،أرتعد لا أعرف هل هذا من.. أم من أشـــياء حولنا، حينما تقترب منا الأشياء نشعر بالبرودة، نقشعر ونرتعد، لا، إننـــي مريض، لا أحس بالدفء في السترة، إنني مريض منذ أمس، كـــان يجـــب أن أكون في فراشي الآن بدلا من أن أتعب جسدي، أشقيه معـــي، أذهـــب إلى الفندق وألقاك وأنزل معك إلى القبو وأحدثك، ها أنا أشـــد معي جسدي من البيت إلى الفندق ومن الفندق إلى القبو ومن القبو إلـــى المقابر، ولا أعرف بعد ذلك إلى أين، وها هما قدماى ترتعدان ولن تعـــودا لاحتمالـــي، يجب أن أعود وأنام، لقد قال لي صاحب الكشك إنني يجـــب ألا أغـــادر الفـــراش، ابتســـمت له وقلت سأرجع حالا، ها أنت قد عرفـــت المكـــان، تعالى إلى هنا كلما استطعت حتى..لماذا تنظرين إلى؟ إننـــي أقـــول لـــك الحقيقة، مهما ابتعدت عنى أو عن نفسك فالحقيقة لن تتغـــير.. لا..لا توجـــد حقـــائق، لكن حقيقة سواء رأيناه في الحلم أو في الواقـــع، إلـــى أين أنت ذاهبة ؟ لماذا تسرعين أمامي هكذا ؟ هل ضايقك كلامـــي ؟ ابتعدي كما يحلو لك فإنك ستعودين، أنا آسف أطلب منك أن.. بـــل قد يكون تحت قدميك، قدماك الصغيرتان الجميلتان، أركضى اذهبي ،

اذهبـــي على كل حال، افعلي ما يحلو لك، ما كان لي أن أصحبك إلى هنا، لكن لا تجعلى الزمن..، اتسمعيننى ؟ احترسي من الأشواك.

( سمعته من وراء الباب وهو يقول: من ؟
فـــتح الباب قليلا وأخرج رأسه. قلت له لم يكن للمقاهي أبواب.قال لي: أدخـــل. قال لي من خلف البوفيه : اشرب معي شايا، أنت الآن في بيتي. قلـــت له لـــيس للمقاهـــي أبواب. قال وهو يضحك : اشرب معي المقهى بيتي ولن آخذ منك شيئا )

تقدمـــت مـــن الـــباب الكبـــير وضغطت عليه، وقفت وسط صالة المقهـــى الواســـعة، كانت المناضد والمقاعد متراصة فوق بعضها بجوار الجـــدران تاركة فراغا كبيرا في الصالة. نظرت لي صاحب المقهى وقلت فـــي نفســـي إنـــه يعـــرفه. فـــي ركـــن من الأركان رأيت سريرا صغيرا وصـــندوقا خشبيا يضع فيه ملابسه، على الجانب الآخر امتد حبل يتدلى مـــنه ســـروال داخلـــي ذو ســـاقين طويلين وفانلة. وقفت وسط الصالة الخاويـــة. قام صاحب المقهى بمسح أحد المقاعد بذيل جلبابه وقدمه لي. في الحائط المواجه فتحة كبيرة كشفت عما وراءها. لما سألته عنه قال وهـــو يتفرســـنى بعينـــيه أنـــه لم يره في الفترة الأخيرة، كان يمر عليه ويجلس عنده بعض الوقت يشرب معه الشاي ويتحدثان معا. تطلعت إلى الفـــتحة التي في الحائط، انهار جزء من الجدار تحت ضغط الانفجار. قال إنـــه فـــي كـــل المرات التي يأتي فيها كان يدخل من هنا. تقدمت محنى القامـــة ودلفـــت من الفتحة، وجدت نفسي في صالة أخرى اكبر وأوسع،

إنهــا صالة سينما، سقط ضوء الشمس من هوة واسعة في السقف على المقــاعد المحطمة المنزوعة من قضبانها الحديدية من الأسمنت المسلح فــي الأرضية، وفى الحائط البعيد بدت فوهة مظلمة كشفت عنها الشاشة التــي مزقها الانفجار، أطرافها ما زالت ملتصقة بالحائط، شرائط طويلة أثقلهــا الغــبار وخــيوط العنكبوت، ومن هوة بالسقف سقط شعاع فوق صــورة ملصقة على الحائط بجوار الشاشة الممزقة مكتوب فوقها " فيلم الأســبوع القــادم " أحسســت بصاحب المقهى يقف خلفي، قال : حينما سـقطت القذيفــة انفجرت فوق السقف ولم تنفذ إلى الداخل لكنها تركت الآثار التي تراها.

( اجــتزت الممر الموجود وسط المقاعد في الصالة وصعدت إلى البلكون وجلست على مقعد في الصف الأخير..ففي يوم..)

تحــت بقعــة الشــمس وقفت أمام الشاطىء وهى ترتدي ملابس الــبحر، كــان جســدها ابــيض والملابس الصغيرة سوداء، كانت تلتفت خلفهــا رافعــة يديها وعلى صدرها حفرة عميقة ضيعت ملامح صدرها حــتى العــنق، وفــى الزاوية العلوية بدا رأسه وهو يضحك لها وتحت رأسه اسم الفيلم ثم أسماء الممثلين التي بهتت حروفها.
قال صاحب المقهى ــ آخر مرة كانت معه فتاة.
ــ أي فتاة ؟
ــ كانا يمران أمام المقهى فدعوتهما، لم أرها من قبل.

( كان الصمت يملأ الصالة كلها ولم يكن هناك أي ضوء ينفذ من

فوهـــة الســـقف، ورأيتهم، كانوا يجلسون على مقاعد الصالة، كنت أرى عظـــام أقفيـــتهم وكـــانوا يشـــاهدون الفيلم.. كنت أراهم من أقفيتهم لا يتحركون ،جماجمهم لا تهتز ،ينظرون ناحية الشاشة الممزقة..)

قـــال صاحب المقهى ــ ناديتها من هذه الفتحة وقال لها أدخلي وشاهدي فوضعت يدها على الحائط وقالت لن أدخل..سمعتها.
قـــال صـــاحب المقهـــى ــ قالـــت له أنها أخطأت بالحضور معه وتركته وانصرفت.
ــ صفها لي..
ــ فتاة لها صدر كبير..لا مؤاخذة.
ــ صفها لي.
ــ لا أتذكر، لكنها كانت تضع على رأسها منديلا.
ــ منديل.
ــ منديل أحمر، أتذكر هذا لأنه سقط منها على الأرض عندما انصرفت.

( حيـــنما خرجـــت كان الشارع مظلما، عند نهايته وقبل أن أدلف إلـــى الشارع الآخر، شعرت بهم ورائي، يخرجون من الشوارع الجانبية ويســـيرون في صمت، أسمع أقدامهم الصلبة تحتك بالأرض تقذف بعيدا بالأحجار التي تقابلها في طريقها ،يتبعونني..)

أحسســـت بوقـــع عينيها على جسدي، ما الذي أتى بها إلى هنا؟. كـــان الهواء ثقيلا جارحا وهو يشق أنفي ويغوص في صدري، أشم فيه رائحـــة الغبار القديم، رائحة الرطوبة، وكان الجفنان يقاومان رغبتي في

أن أرى مـــا حولـــي، وثمـــة ضغط ما فوق صدري وعلى الجانبين، من خـــلال جفنـــي المطبقين رأيتها، جالسة على مقعد بجوار السرير، نحيفة إلا مـــن عينيـــن واسعتين، شعر طويل ينزلق خلف ظهرها في ضفيرتين كبيرتيـــن، اســـتقرت يداهـــا فوق حجرها، على فخذيها النحيلتين، تعبث الأصـــابع ببعضـــها الـــبعض، تتطلع إلى بعينيها الواسعتين، صامتة وأنا راقد على سريري.

شـــيء ما يضغط معدتي، أرى محتويات الحجرة من خلف سحابة شـــفافة ،ســـمعت صوتي يتردد في قاعة السينما وأنا أتحدث مع صاحب المقهـــى، أصوات وأشياء تملؤني، الدولاب المنضدة زجاجة الماء، تبدو مـــن خلف الساحة كأحد التماثيل هادئة وادعة لا تتحرك، الصدر المرتفع الممـــتلىء يعلـــو ويهبط. أغمضت عيني برهة فرأيته وهو يجرى هاربا فـــي الشـــارع المهجور وهم يطاردونه، هم. لا بد أن الصمت الذي كان يعـــيش فـــيه لم يجعله يصرخ يستغيث، كان يقاوم في صمت، يجرى في صمت، يختبىء في صمت.

فتحت عيني فوجدتها ما زالت تجلس بجوار السرير تنظر نحوى، فـــي وجهـــي. اخـــتلج جفـــناها وتوقفت أصابعها عن الحركة، متقوسة بظهرها قليلا جاذبة صدرها إلى الخلف، ابنة صاحب الكشك.

قالت ــ أبى سأل عنك.

قلت ــ أين هو ؟

قالت ــ جاء وأنت نائم..عاد إلى الكشك.

أردت أن أعـــتدل بقامتـــي فلـــم أستطع، ثمة تيار بارد بدأ يزحف

على جسدي. تحركت فوق مقعدها ومدت يدها بأصابعها النحيلة نحوى.

قالت ـ أبق مكانك..لا تتحرك، سيحضر أبى حالا.

ـ كيف جئت أنا إلى هنا ؟ أنا لا أتذكر.

قالــت ـ لا تتحرك..إذا ـدت شيئا اخبرني..أنا موجودة هنا لهذا الغرض،أبى قال إنه سيحضر ـدما تستيقظ.

قالت ـ رأيناك تمر بنا متجها نحو البيت، كنت منكسا رأسك، لم تسمع أبى حينما ناداك.

ـ أنا ؟

سمعنا طلقة بعيدة، التفت نحوها :

ـ هل سمعت ؟

قامــت بهــدوء مــن فــوق المقعد، انسدل رداؤها الطويل حتى قدمــيها، اتجهت نحو النافذة ونظرت من خلال الزجاج، تبدو من الخلف بــردائها الطويــل فتاة صغيرة تستقر ضفيرتاها فوق ظهرها، الارتعاشة الخفيفة التي أحسست بها في ردفيها الصغيرتين من تحت الرداء.

عــادت نحوى ووقفت بجوار السرير، ثدياها يطلان فوق وجهي، وصليب صغير يتأرجح في سلسلته فوق صدرها.

قالت ـ لم يكن غيرها.

ـ إنها تبدأ أحيانا بطلقة..بطلقة واحدة.

قالت ـ لا تنهض من فوق السرير.

شــعرت بالــبرد فــي ساقي وبدأت أرتعد، كنت أرتعد في الفندق،

وتحـــت في القبو وفى المقابر، وكانت الأصوات كلها تتردد في صدري.
انطلقت صفارة الخطر متقطعة تنذر بشيء ما.

ــ ألم أقل لك ستبدأ بطلقة واحدة.

كـــنا نســـمعها معـــا في الحجرة تتردد بقوة في المدينة الساكنة، أنصتت قليلا وهى تنظر نحو النافذة.

قلت ــ سأهبط.

ــ لا تفعل

ــ اهبطي أنت

ــ سأبقى معك.

ســـمعنا مكبر الصوت المعلق في الميدان يتردد صداه في الميدان والشوارع الخلفية، فلا نعرف ماذا يقول، ألف صوت تذوب في الشوارع والحـــواري تمتصها مداخل البيوت والأحواش والمساقط الكبيرة ومنافذ الأبـــواب والـــنوافذ المحطمة، لكننا نفهمه وندركه. دوت المدافع وكانت القذائف تتجه من فوقنا نحو الشرق..

قلت ــ إننا نضرب..هذه المرة نحن الذين نضرب.

ــ لا تغادر السير.

لـــم أصـــارحها بالبرد الذي اجتاحني، شددت الغطاء على جسدي حتى عنقي، فهمت حركتي فنظرت إلى الغطاء.

ــ هل تشعر بالبرد ؟

ــ قليلا..

قامـــت وانحنـــت فوقى، تدلى صليبها، أخذت تلملم الغطاء حولي،

شعرت بالحرج.

ـــ أبوك لم يحضر .

ـــ ليس عندك بطانية أخرى.

ـــ توجد واحدة تحتي ولا يوجد غيرها.

قالت ـــ ننزع البطانية التي تحتك ونضعها فوقك.

عـــنقها عـــنق امـــرأة، انحنـــت فوق السرير،تدلى صليبها فوق وجهي، أحسست بأنفاسها ساخنة تلفح بشرتي ، تدلى الثديان بامتلائهما مـــن تحت الرداء ورأيت منبتهما، ساعدتها فقوست جسدي وأخذت تنزع أطـــراف البطانـــية من حول السرير ومن تحتي، حتى أخرجتها وطرحتها فوقي.

ـــ إنني أتعبك معي.

ـــ لا تعب..أبى يقول لي إنك..

عادت السحابة ثانية لكي تحول بيني وبين الأشياء من حولي.

أخذت أرتعد بقوة بينما المدافع تدوي بعنف.

ـــ اهبطي إلى الدور الأرضي.

ـــ لا..

ـــ اهبطي، سأنادي عليك إذا احتجت شيئا.

ـــ لا..نحن الذين نضرب هذه المرة..

ـــ اهبطي..

ـــ سأبقى معك.

لمـــاذا تبقيـــن هـــنا، اهبطـــي. طلقة مدفع. قومي واهبطي. طلقة

مدفـــع. لا تضــيعي نفســك. طلقـــة مدفع.لو كنت أستطيع. طلقة مدفع. اتركينــي. طلقـــة مدفع. ستقضى على حياتك. طلقة مدفع. تحت الأرض. طلقـــة مدفع وفى المخابىء وفى الحجرات الداخلية. طلقة مدفع. تمتص الصفارة. طلقة مدفع. حياتك.طلقة مدفع. صدرك.

اهتز جسمها الصغير ن تحرك صليبها فوق صدرها.

ــ اذهبي من هنا ( طلقة مدفع )

ــ سأبقى. ( طلقة مدفع )

إنهــم يقصــفون كــل شـــيء، أي شيء وصليبك هذا طلقة مدفع والكنيســـة طلقـــة مدفـــع أي كنيسة ؟ طلقة مدفع هدموها وأصابوا. أي كنيســـة ؟ طلقـــة مدفع. لو كنت رأيته معي طلقة مدفع رأسه تحت طلقة مدفـــع وقدما فوق. فوق طلقة مدفع ــ أين ؟ الم يأخذك أبوك هناك، أنت ــ أي كنيســـة؟، بجــوار الفندق ن قبل أن تغادروا تهاجروا طلقة مدفع، ألــم تذهبــي؟، أعــرفها، القســيس الحزين طلقة مدفع، القسيس؟ يدق الجــرس ويبكى، صليبك، يبكى، إنهم يقصفون المدينة. انفجار.ألم أقل لك هدمــوا الكنيســـة فــبكى، الأبــراج المـــآذن الأبراج والمآذن، الكنائس والمســـاجد والسينما والمقاهي. له ذقن كبيرة امتلأت بالشعر، ــ قال لي هــل عــثرت علــيهما ؟ هل هناك أخبار جديدة ، ــ تشعر بالحمى، قالت إنهـــا لا تحــبه ، أنــت تهذي ، تعطف عليه ولم تحضر إليه، ــ سأنادى أبـــي، قلت له هل كان يأتي إلى هنا ؟ طلقة مدفع، فرد على الصوت من خلــف فوهـــة الشاشـــة، هل كان يأتي إلى هنا؟ انفجار. اعترف، لكنها انكرت، إنهم يقصفون ونحن نضرب.

ـ سوف أقول لك، أنا..

إنهم يقصفون ونحن نضرب..

ـ أنا لست صغيرة كما تظن.

ـ بصراحة..

ـ أنا بنت كبيرة..كبيرة جدا.

طلقة مدفع وانفجار

ـ أنا بنت كبيرة رغم جسمي النحيل .. نافعة.

مـــن خـــلال الســـحابة التـــي ازدادت قتامة، دارت الحجرة وهبط السـقف وارتفعـت الطلقات تدوي.. تضغط على صدري، أحسست بأني عـــار بـــلا ملابس، تملكتني الرعدة واصطكت أسناني، لم أعد أرى شيئا، تشـبثت بأطراف الأغطية تقلصت أصابعي عليها، شعرت بالأغطية ترفع من فوق صدري و تدلف ابنة صاحب الكشك إلى جواري. الحجرة تهتز. السقف يهتز يتحرك يتقوس. ذراعان قويان يمران فوق صدري تدلكانه، أنفـــاس دافـــئة ســـاخنة تلفـــح وجهي، سرت السخونة ببطء في جسدي عـــندما التصـــقت بـــي وهـــي تحتضنني بقوة، غطت صدري بصدرها، أحسســـت بســـاقيها تدلكـــان ساقي بينما كانت يداها تدعكان جانبي بقوة وهـــي تضـــغط بجســـدها النحيل على جسدي ن مددت ذراعي الخائرتين وطرحتهما فوق ظهرها.

( هـــا أنـــت تنظر، لا تسمع سوى ساعتك في الحجرة، لقد ملأت قلـــبك بـــالأمل، لكـــن بقـــاءك هنا لن يجعلها تأتي، إياك أن تخدعك تلك الضـــربات الوهمية فوق الباب، ولا وقع الأقدام الذي تسمعه فوق السلالم

الخشـبية، كـان يجـب عليك أن لا تفتح الباب في كل مرة لتغلقه ثانية وأنـت أكـثر ألمـا وأكثر شعورا بالوحدة، هذه الساعات التي لا تتوقف أبدا، ترسل دقاتها كنبض قلبك )

عندما خرجت إلى الشارع كانت رائحة البارود تملأ الجو، لم أجد الكشـك، اقتربت من مكانه، كانت هناك حفرة عميقة مملوءة بالماء ومن حولهـا تطايـرت أجـزاء الكشك، قطع من الحديد والصفيح والأخشاب وبعـض علـب السـجائر المحـترقة مبعثرة، أما الباب الخلفي فقد قذفه الانفجـار بعـد أن خلعـه مـن الكشك وقت الضرب إلى ما وراء السور الخلفـي، قـالوا إنهم لم يروه ن سألت عن ابنته قالوا أنهم رأوها تبكى مـنذ قلـيل وذهبـت، عـثرت علـى براد الشاي سليما لم يمسه شيء وبجـواره وعـاء من الألمنيوم وجزء من مقعد خشبي كان يجلس عليه داخـل الكشـك، كانـت الأرض حول مكان الكشك محترقة سوداء تنبعث مـنها رائحة الاحتراق، تركز القصف على طول الشارع، تناثرت الأحجار الجديـدة فـي الطريق وكان بعضهم ينادى حاملين حاجياتهم التي قذفها الانفجار بعيدا بعيدا أو جعلها معرضة للسقوط بعد أن تلاشت الجدران.

( قـم وأخـرج، أذهـب إليها، لا تبق أكثر من ذلك في حجرتك، أطلـب مـنها أن تصفح عنك، لقد أسأت إليها، ألا تستطيع أن تتحكم في نفسـك، أن تسيطر على أعصابك حتى تكسب قلبا أنت في حاجة إليه، لا تحـاول أخذهـا معك إلى تلك الأماكن، يكفيك أن تراها بالفندق ،إنها لن تأتى إليك، يجب أن تعترف..)

سـمعت وقـع أقدام على سلالم البيت الخشبية، كان الوقع خفيفا بطيـئا مـترددا، أسـتطيع أن أتحرك بسهولة بعد أن شفيت من مرضى، انـتظرت حـتى سـمعت دقا هينا على الباب، فتحت، رأيت ابنة صاحب الكشك تحمل في يدها حقيبة ملابس، أفسحت لها فدخلت، أغلقت الباب.

( هـذه الأصوات، تلك الأصوات..إنك لا تخترعها، أنت تسمعها، لا تسـتطيع إلا أن تسـمعها، إنهـا ليست أوهاما، إنها أوهام، إذن لماذا تسـمعها بأذنـيك ؟ ولمـاذا تترقـبها إذا غابت عنك ؟ لا تهتم، لا تركز سـمعك لالـتقاط الأصـوات، إنها تصدر من النوافذ المخلوعة والأبواب المكسـورة والجـدران المحطمـة إن الهواء يعبث بتلك الأشياء فتصدر الأصـوات، حـتى الأحجار التي تسمعها تتدحرج فوق الطريق أو ساقطة من فوق هي..

أتسـمع وقـع أقدام ،لا، إنه دق على الباب، قم، إن الباب يهتز، إنـك إذا فتحـت هـذه المـرة فسوف تجدها، سوف تجد أي إنسان..أي إنسان ).

يناير ــ مارس

١٩٧٤

# إصدارات




| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| ونس--------------------------- | محمد الحسيني |
| عباد الضل ---------------------- | محمد الحسيني |
| صندوق الحزن --------------------- | محمد الحسيني |
| غرفة السر ----------------------- | محمد الحسيني |
| مس الكلام----------------------- | محمد الحسيني |
| طفل الفجر---- | جوتاما شوبرا ( ترجمة / ظبية خميس ) |
| لينا والبرتقال --------------------- | سليمان نزال |
| صاحب القلنسوة------------------ | حياة الحضرى |
| دراما اللوحة --------------- | أ. د. / مصطفى يحيى |
| رائحة المطر------------------------- | منى سعيد |
| روح الشاعرة----------------------- | ظبية خميس |

| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| الرجل والموت | |
| وعبر الليل نحو النهار | محمد الراوى |
| الفضيحة الإيطالية | محمد بركة |
| شنغهاي بيبي | وي هيوي ( ترجمة / ظبية خميس ) |